القاهرة

تأليف

ديزموند ستيوارت

ترجمة

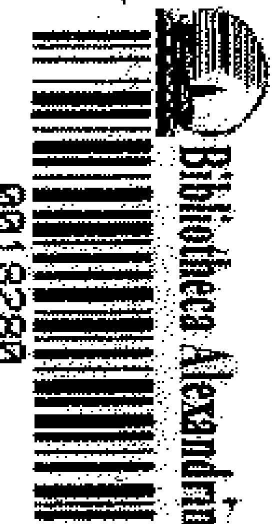
يحيى حقي

تقديم

د. جمال حمدان



دار المعارف



القاهرة

تأليف
ديزموند ستيوارت

ترجمة
يحيى حقي

تقديم
د. جمال حمدان

دار المعارف

الناشر : دار المعارف — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.م.ع.

هذا الكتاب

لم يستطع معول التنظيم الغشوم، ولا أكداس العمارات الشاهقة المسلحة بالأسمنت، ولا غوائل الشوارع الطارئة المفروشة بالأسفلت، ولا أحياء حجارة الدومينو تنبت كالفطر وتتضخم كالسرطان، شقًا إلى القلب كالطعنة النجلاء أو لفًا على الجوانب، غلافًا فوق غلاف، ولا ظل قبعة قميئة مستعارة وضعتها على الرأس يد عمياء متلهفة على التقليد - لم يستطع شيء من هذا كله أن يمس طابعها الأصيل وجلالها المكنون - هبة لها من حضارة الشرق، ونفحة من سماته، كلاهما خارج عن متناول الزمن وعواديه، إن كنت تأنس لجمالها حين يطوف به خيالك إذ هو بالأمس فى قصره، فى عز مجده فإنك أشد أنسًا به وأنت تزوره اليوم فتراه منكمشًا

منزويًا فى صومعته. بقى من الثمرة سر الحياة والديمومة فى نواتها الصلبة، هيهات أن تتحطم، إنها صلابة الدفاع المستميت فى آخر خندق، وهذا التجمل بالستر إذ الود فاتر ومنسى أشد نبلًا من أريحيتها وإغداقها إذ هى مأخوذة بالأحضان والدنيا مقبلة..

لم تستطع الأسطح المتعالية يومًا بعد يوم أن تحجب مآذنها العديدة، باقية هى ناجية بشممها وشموخها، ولا الضجة الهائلة التى اندلقت عليها أن تخنق ضراعات هذه المآذن، يخشع لها القلب وتطرب الأذن عند مولد كل فجر..

جدران عتيقة يتراكم عليها التاريخ، آية فى فن العمارة، فى ذروة الصدق، تصون داخلها أمثلة رائعة للجمال، تحكى فى صمت قصة آلاف من الفنانين بناة الحضارة عملوا فى ورع وهم متطهرون ثم مضوا لا يعرف أسماءهم أحد، ولا يذكرهم أحد، حق لهم أن يتضاعف ثوابهم، جزاؤهم عند رب لهم عليم..

وأسواق لا تزال متشبثة بأمكنتها، كأن لها جذورًا

ضاربة إلى الأعماق، هيهات أن تنقصف أو تنزوى، شاخت ولكنها لا تزال متشحة بأطياف من وسامة شبابها وزينة عرسها. تغير عن يمين، عن يسار، من حول كائن واحد لا يتغير، ابن البلد، بكرمه ومروءته، بلطفه وظرفه، ببشاشته وخفة دمه، بنكاته وقفشاته، بذكائه وحضور بديهته، هو الذى رقق العامية على لسانه وأثراها بأبدع مجاز واستعارة، ساخر وحكيم، تحسبه لطيبته غرًّا ولكنه «حويط»، يلقط العملة الصحيحة ولو ممسوحة من بين عمله كثيرة زائفة ولو براقة، لا ينطلى عليه الكذب والنفاق ودموع التماسيح..

هذه هى القاهرة، إن كنت لا تعرفها يا أخى فاعرفها، إذن ستحبها، ستعشقها، ستنضم إلى زمرة عشاق لها كثيرين، هاموا بها ولاء والتحامًا، منذ أن ألقى فى نهر النيل عقدها ما تخلف عن ولادتهم من مشيمة مصرورة فى منديل، عشق بالغريزة، بالإرث، بالقسمة والنصيب والحمد لقدر لا تعلل تصاريفه..

لم أعرف عيدًا قوميًّا تمثل لى فيه لقاء موعود مع

حبيب كالعيد الألفى للقاهرة، بلدى الذى ولدت فيه، ونشأت فى أحيائه العتيقة الشعبية، تحس أعصابى قبل عقلى بمقدم العيد، وددت أن أشارك أهلى فى الاحتفال به فاخترت أن أترجم لهم عن الانجليزية كتابًا إن صدر سنة ١٩٦٥ فهو لا يزال - بقدر علمى - من أحدث الكتب التى ألفت عن القاهرة. كتبه ديزموند ستيوارت الذى يتكلم العربية وتعرفه أوساط الصحافة عندنا لأنه عمل بها وأقام بيننا طويلًا، وله فى بلده إنتاج أدبى، متعدد متنوع. اخترت كتابه لأنه صغير الحجم، ململوم، فصوله محددة أجمل تحديد، موصولة ببراعة، أرجو أن تلحظ كيف كان أول تناوله للقاهرة من ناحية طابعها الصحراوى لأنها - بل الوادى كله - فى حضن الصحراء، ثم من ناحية طابعها النهرى، ثم يمضى يساير التاريخ فى فصول يأخذ فيها اللاحق من السابق..

وأحب أن أنبهك أن هذا الكتاب هو كلام أجنبى، مقصود به خدمة زائر أجنبى يقدم إلى بلادنا لأول مرة، فالحديث له لا للمصريين. لا تضق ذرعًا إذن بمعلومات

وردت به هى غير مجهولة لك، بل لعلك تجد متعة فى مقارنة دلالتها عندك بدلالتها عند المؤلف، لذلك فإنه يرسم لهذا الزائر طريقه إلى المساجد والكنائس، ويقيس له زمن المشوار مشيًا بالساعة والدقيقة، ويحدد له أسعار فنجان القهوة وقطار حلوان ودخول المتاحف، ولكنه يقتصد فى هذه الإرشادات العملية ويتخذ طريقًا وسطًا، فلا يتسم بهذا الجفاف العلمى الذى تجده فى مؤلفات فقهاء الآثار، ووقوفهم الطويل أمام الأحجار والعقود والمقرنصات، (وضع الأجانب مصطلحات العمارة ونحن لا نزال فى حيرة لا نستقر على مصطلح نستخدمه فى التأليف أو الترجمة) ولا يتسم الكتاب كذلك بالجفاف التجارى الذى تجده فى كتب دلالة السياح، ولم يقصد المؤلف أن يقدم لنا فى صورة مختصرة معلومات كثيرة استقاها من المراجع، وإنما أراد أن يحكى بأسلوب أدبى للزائر الأجنبى (وقد افترض فيه هيامه بالفن وجوانب الطرافة فى الحى والجماد) ما أحس به هو ذاته داخل نفسه وهو يجوب أحياء القاهرة يعرض أحاسيسه على لوحة من الحقائق التاريخية التى استمدها من مراجعها

الوثيقة، إنه رأى الألوان وأطياف الألوان وشم الروائح وسمع الهدير والصمت واستقرأ الوجوه والأسطح والجدران وأكوام القمامة، كم كنت أود أن يكتب كل أديب كبير عندنا عن القاهرة ويصف لنا وقعها على نفسه كما فعل هذا الأجنبى، إنك لا تملك إلا أن تحس أنه يحب القاهرة حبًا كبيرًا، ولكن بقيت مع ذلك فى نفسى من الكتاب أشياء تململت لها، أبقيتها ليكون النص العربى مطابقًا للنص الانجليزى تمام المطابقة، وكان من الواجب أن لا تترك بغير تعليق يتولاه من هو أعلم منى بالتاريخ، ودعنى أعترف لك أننى ما تناولت كتابًا لأجنبى يصف فيه بلدى فأراه يلقى عليه نظرة جديدة تعتمد على ثقافة شاملة وتحاول النفوذ بالحس المرهف إلى السر من تحت السطح إلا تملكنى شىء من الحسرة والغيرة، قد يصدنى أحيانًا عن متابعة الكتاب لئلا أحكم بنفسى على خيابتى وقصور بصرى، وهذه هى حيلة العاجز المعتذر مع ذلك بأن نيته فى النهوض صادقة، والنية بلا عمل كالبندقية بلا رصاصة، فأبناء بلدى هم عندى أولى الناس بفهم بلدى وخدمته، لن أتخوف - شأنى مع الأجانب -

شبهة التجنى عن سوء فهم، أحيانًا عن سوء قصد، ثم أعود للكتاب وأنا أقول إن الأجنبى أقدر من ابن البلد على الرؤية لأنه ليس مثله ضحية الألفة المستنزفة لجدة الانتباه والعجب، المفضية إلى عناق تموت فيه اللهفة وإن بقى الحب، وأشهد أن ديزموند ستيورات أرانى لأول مرة أشياء كان يقع عليها بصرى من قبل ولا أنتبه لها..

ونحن الآن نحتفل بالعيد الألفى للقاهرة، الأم التى نحلف بجمالها وننعم بحضنها. سنقرأ ولا ريب أعمالاً بديعة تتحدث عن التاريخ والآثار والعمارة والخطط وتراجم الأعيان، ولكن الذى أبحث عنه هو كتاب يتحدث عن القاهرة حديث عاشق عن عشيقته، حديث إنسان حى عن إنسان حى ينفرد بملامح ثابتة وإن تقلبت ثيابه. لن يخط هذا الكتاب قلم مؤرخ أو عالم آثار، بل قلم أديب ابن بلد، أو قل قلم شاعر كتب بالنثر، والعجيب أننى وجدت ضالتى لا عند أديب أو شاعر بل عند صديقى الأستاذ عبدالفتاح عيد، نابغة فن التصوير الفوتوغرافى فى بلدنا، فإن لوحاته عن القاهرة شعر

ونغم، وحس مرهف، وفيض حب كامن فى أعماق القلب. وكم كنت أتمنى أن يصحب الاحتفال بذل جهود كبيرة للتعريف بالقاهرة والحض على حبها، أتمنى أن تنظم لنا جولات صباحية أيام العطلة مشيًا على الأقدام، بالمجان، فى صحبة عالم آثار لا دليل سياح، يشرح ويفسر. جهود أخرى للمناداة بصيانة الآثار الإسلامية فى ذاتها وفى نوع الجيرة من حولها، وإثارة الاهتمام بفن العمارة، فمن العار أن لا تصدر مجلة للعمارة فى القاهرة أم العمارة، والمطلب من هذا كله هو حث المعماريين عندنا على الوصول إلى طراز يلائم طبعنا وجونا، ويستمد من تراثنا، فما أشد ابتلاءنا بعمارات مستوردة لا تناسبنا، نذل بها وتذل هى بالغربة عن مواطنها، لا تنفعنا كما نفعت أهلها، فالشقاء مزدوج متبادل..

يحيى حقى

مقدمة

القاهرة الكبرى
دراسة فى جغرافية المدن

بقلم: د. جمال حمدان

إذا عدت المدن العواصم العظمى فى العالم، فالقاهرة واردة بالتأكيد فى العشرة الأولى أو العشرة ونيف. وهى المدينة الأولى - المطلقة - فى قطاع هائل متصل من العالم القديم قد يجاوز ثلثه مساحة ويتعدى آفاق القارة الأفريقية إلى تخوم الألب ووسط آسيا. بل إن بضعة لا يستهان بها من الدول الأفريقية لتقل سكانًا - سكان كل منها أقصد - عن حجم القاهرة كثيرًا أو قليلاً، وذلك حتى دون أن نذكر أن القاهرة تستأثر وحدها بنحو نصف

سكان العواصم الأفريقية الخمسين مجتمعة!

وإن حصرت العواصم المخضرمة العريقة فى الدنيا، فلعل القاهرة (وأسلافها أو بأسلافها) هى أم المدن جميعًا، وعلى أية حال فقليلة جدًّا هى المدن التى يمكن - كدمشق - أن تنافسها فى هذه الصدارة. وحتى نتمثل هذا البعد الزمانى السحيق بشىء من التجسيد الذهنى، يكفى أن نقول إنه قد يعادل مجموع تاريخ حفنة ليست بالقليلة من عواصم غرب أوربا، وقد يرجح كل تاريخ عواصم العالم الجديد مجتمعة..

أما إذا اعتبرنا الوزن الحضارى والنفوذ السياسى والوقع والإشعاع القومى والفكرى، فما من عاصمة فيما نظن لها فى دولتها ما للقاهرة من ثقل ومركزية طاغية وسيطرة أو توجيه، بل وإلى حد الإفراط ربما. ولقد يختلف علماء المدن حول السؤال القديم: هل العواصم هى أكبر وخير مايمثل ويجسم روح بلدها وكيانه، وذلك باعتبارها بوتقة تنصهر فيها عناصره وأقاليمه، أم هى بطبيعتها العالمية الكوزموبوليتانية بالضرورة وبما تضم من

جاليات وأجناس أجنبية وبما تتطلع دائمًا إلى الخارج تؤلف بينها طبقة «كاستية» خاصة من المدن في العالم أشبه ببعضها البعض منها بصميم أقطارها المحلية؟ مهما اختلف الرد، فلا خوف في حالة القاهرة، ولا يمكن له أن يقوم، فهاهنا عاصمة تستقطر وتستقطب روح الوطن وترمز إلى جوهر كيانه حضاريًا وماديًا، جغرافيًا وتاريخيًا، ربما كما لا تفعل عاصمة أخرى.

هذه إذن هي القاهرة: تاريخ مفعم مجمد أو محفوظ كل حجر فيها مشبع بعبق الماضي وعرقه، كل شبر منها يحمل بصمات الإنسان. إنها - كبيت جماعي كبير، وكمنطقة مبنية لا مثيل لكتلتها في مصر - عمل فني من مقياس ضخم مهندسه وساكنه هو المصري، وهي بهذا أكثر أو أكثف رقعة من اللاندسكيب الحضاري في مصر «تبشيرًا» وحملاً للطابع البشري، وبنفس الدرجة أبعدها عن ملامح الطبيعة الخام واللاندسكيب الطبيعي الغفل للوادي..

ورغم هذا كله، فإن القاهرة من أسف من أقل

العواصم حظًّا في دراسات المدن العلمية الحديثة. كثيرة هي لا شك الكتابات الأكاديمية والشعبية المتاحة عن هذه المدينة الخالدة، ولكن الغالب عليها إما التاريخ عمومًا أو تاريخ العمران أو الآثار خصوصًا. وربما أضفنا بعض كتابات «هواة المدن» من الرحالة أو الأدباء أو الصحفيين، لاسيما منهم الأجانب.

أما دراسة المدينة ككل حي متعضون فوّار محدد السمات والقسمات، كمجتمع مركب متلاطم مضطرم يضطرب في وعاء جغرافي واضح المعالم بارز التضاريس، أما دراسات علم اجتماع المدن وجغرافية المدن بوجه خاص، أما مورفولوجية القاهرة الكبرى، تركيبها الوظيفي، أيكولوجيتها البشرية، نموها السكاني وزحفها العمراني وضوابطه، هيدرولوجية النقل ومشاكله الخانقة المختنقة، الطبوغرافيا الاجتماعية والتوزيع الجغرافي للطبقات والحرف، إقليم المدينة وحدوده، التخطيط المستقبلي ومؤشراته.. الخ، أما هذا كله فمازال فراغًا مقلقًا وأرضًا بكرًا (ولا نقول مجهولة) منذ ظهرت أول

وآخر محاولة جادة فى هذا الميدان الضخم، ونعنى بها دراسة كليرجية[1] فى الثلاثينات، والتى دفع بها نمو العاصمة المدى الانفجارى الحديث إلى زوايا المكتبة التاريخية بدرجة أو بأخرى.

والكتاب الحالى الذى نقدم له بين يدى القارئ نموذج شيق وطريف بل وبارع لكتابات المثقفين من الصحفيين الرحالة الأجانب هواة المدن الذين يحاولون بذكاء أن يستقطروا روح أمة وشخصية بلد من خلال عاصمتها وعن طريق التجربة الحية والخبرة الشخصية، مدعمة بقراءة واسعة فى التاريخ والتراث تترامى من الفولكلور إلى اللغات، ومن الدين إلى الأدب، ومن الجغرافيا والاجتماع إلى العمارة والهندسة.. إلخ.

ولقد يختلف القارئ مع بعض الأحكام والنظرات التى أوردها المؤلف كأجنبى عابر، فهذا أمر لا مفر منه وتلك عمومًا نقطة ضعف الكاتب الأجنبى أيًا كان ومهما

---

(١) Marcel Clerget, Le Caire, Etude de Géographie Urbaine et d'Histoire Econ omique, Le Caire, 1934, (2 vols.).

حاول، ولكن من المحقق – بالمقابل – أننا سنلمس لمسًا نقطة القوة وميزة العين الأجنبية النافذة الثاقبة ترى وتلتقط من اللمحات الشفافة واللفتات الدقيقة اللماحة .ما قد أخفى الألف عن عين صاحب الشأن نفسه حتى غاب عنه أو كاد.

الكتاب إذن – فى كلمة – قصة رحلة travelogue رحلة فى الزمان والمكان، طولها مدينة وعرضها زيارة. ولكنها قصة دسمة ثرية مع ذلك، وممتعة وجذابة إلى ذلك. إنه سياحة بلا دليل، وتاريخ بلا أرقام، وجغرافية بلا خرائط، وهندسة وعمارة بلا لوحات، واجتماع بلا نظريات، وأيضًا سياسة بلا شعارات: قل باختصار: علم وثقافة بلا دموع، كما يعبر الأوربيون.

نعم، بلا دموع. ومن هنا بالدقة تبدأ مهمة هذه المقدمة. ففى تصورنا أن مثلها – لا سيما ونحن نحتفل بالعيد الألفى للقاهرة – ينبغى أن يوفر الأساس العلمى الصلب، والقاعدة المادية والفيزيقية لهذا البناء المدنى الشامخ المعقد والمتعدد الأبعاد. فلعل من المفيد للقاهرى

ابن العاصمة، وللمصرى أبى العاصمة، فضلا عن أخيها العربى، أن يكون لنفسه خريطة ذهنية مبسطة تلم شتات مدينته المترامية وأطرافها فى صورة اختزالية متكاملة دالة وهادفة، تؤكد الخطوط العريضة فى هيكلها وتكمل خبرته اليومية ومعايشته الجارية لأحيائها وحياتها.

لتكن هذه، إذن وبعبارة أخرى، مقدمة مبسطة فى جغرافية المدينة، تحلل الأساس الطبيعى الذى تقوم عليه العاصمة موقعًا وموضعًا، وتتتبع نموها العمرانى فى ظاهرها وظهيرها، وكذلك خطتها الهندسية وكتلتها المبنية، ثم تحدد وظائفها وتوزع طبقاتها الاجتماعية وأقاليمها التركيبية، وقد تعالج أهم مشاكلها واختناقاتها. وكثير من هذه -بالفعل- جوانب عرض لها الكتاب بصورة أو بأخرى.

أما عن الترجمة والتعريب فلسنا بحاجة -أحسب- إلى الوقوف عندها طويلًا أو قصيرًا، وهى من قلم واحد من سادة الأدب والفكر وعمالقته المعدودين فى مصر، ذى سلطان عظيم على لغتى الأصل والنقل معًا بل وعلى

الثقافتين العربية والغربية على حد سواء وعلى أرفع المستويات. ثم إن أمر هذه الترجمة متروك للقارئ نفسه، فهى مكافأته الحقيقية -كما أثق- فى هذه الرحلة الشائقة. وحسبى هنا أن أشهد مخلصًا أننى قطعت شوطًا كبيرًا فى مطالعة النص وأنا أظنه تأليفًا ودون أن أفطن إلى أنه عمل مترجم، وهذه ولا شك أكبر شهادة لأى ترجمة ومترجم. فأنت هنا تشعر أنك تقرأ لصاحب «القنديل» بأسلوبه، بجمله التأثيرية ووقفاته ولزماته، بكل خصائصه ونكهته، كل أولئك فى أمانة وولاء للنص الأجنبى هما أول ما يطلب فى ترجمة. وهناك كما يقال من إذا ألفوا ترجموا، وإذا ترجموا ألفوا، ولكنك هنا أبعد ما تكون عن هذا. على العكس تمامًا، ستجد التزامًا أمينًا بالنص حريصًا على روح المؤلف، ولكن دون أن ترتطم قط بتلك التراكيب الفجة أو التشويهات والاهتزازات التى تسقط فيها عبودية الحرفية.

الموقع والموضع

والموقع هو ذلك الإطار الجغرافى الكبير الذى تحدده العلائق المكانية العريضة والقيم الإقليمية النسبية التى تتعدى كثيرًا جدًا الحدود المحلية للمدينة وقد تصل إلى أبعاد قارية برمتها. لذا فهو فكرة متغيرة على العصور، وبالتالى فقليل من المواقع مايعد خالدًا فى التاريخ. أما الموضع فهو بكل بساطة الرقعة المحلية التى تقوم عليها الكتلة المبنية مباشرة، وهو لا يتغير إلا بزوال جسم المدينة ذاته وانتقالها إلى رقعة أخرى.

والقاهرة تحتل موقعًا فريدًا فى مصر وخارج مصر. ففى إطار التقاء الدلتا بالصعيد، فى عقدة الوادى وصرته، موقع حتمى خالد ظلت العواصم تدور فيه، قد تنتقل من موضع إلى موضع، ولكنها لا تخرج عنه إلا فى فترات عابرة – وربما قيل شاذة – فى التاريخ القومى، مثله فى هذا مثل خاصرة الرافدين فى العراق حيث تتابعت العواصم ابتداء من بابل إلى قطيسفون إلى بغداد، ومثل

تونس على رأس البلد وعلى خاصرة البحر المتوسط حيث تناسلت أو تناسخت قرطاجنه وتنس وتونس.

فموقع القاهرة إذن هو خاصرة مصر، مجمع الوادى والفرعين، وملتقى الصحراوين، كأنما القطر كله على ميعاد فيه. ولذا تحركت فيه العاصمة عبر العصور ولكن دون أن تخرج عن مجاله المغناطيسى. فمن منف الفرعونية (فى منطقة البدرشين حاليًا) إلى أون أو هليوبوليس (عين شمس ومصر الجديدة الآن) إلى بابليون (مصر القديمة) إلى الفسطاط العربية ثم إلى العسكر والقطائع الطولونية حتى القاهرة الفاطمية - كل أولئك حلقات متباينة فى سلسلة جغرافية أو نسل أقليمى واحد أساسًا.

وإذا كانت العاصمة قد عرفت اطارًا إقليميًا مختلفًا ومتطوحًا أكثر من مرة، كطيبة (الأقصر) فى الجنوب الأقصى، وأفناريس قاعدة الهكسوس فى شرق الدلتا، والاسكندرية البطلمية الرومانية، فإنما كانت الأولى فى المرحلة التكوينية للدولة المصرية، وكانت الثانية انحرافة غزو أجنبى بحت، بينما أتت الثالثة انحرافة استعمارية

لامبراطورية بحرية على الجانب الآخر من المتوسط. وظلت حينًا أشبه بجزيرة غريبة من الأرخبيل اليونانى نقلت وألصقت بالساحل المصرى سياسيًا وبشريًا.

والانتقال من منف إلى الفسطاط يمثل نقطة انتقال هامة فى التوجيه الطبيعي والسياسى: فهو انتقال من الضفة الغربية إلى الشرقية، ويشير إلى أن منف، التي كانت سهلة الاتصال بالدلتا مثلما كانت أسهل اتصالاً بالصعيد (حيث المعمور الزراعى يقع فى سواده الأعظم على ضفته الغربية)، كانت عمومًا أدنى إلى التوجيه المصري المحلى..

أما الفسطاط فكانت أكثر اتفاقًا مع توجيه الفتح العربى الجديد، الذى هو نحو الخارج أولاً وبرى الطابع ثانيًا، وذلك بعد أن أصر الخليفة عمر على قائده عمرو «ألا يجعل بينه وبين المسلمين ماء»، فاختار موضع الفسطاط بدلا من الاسكندرية ومن الجيزة كما كان البعض قد اقترح عليه. ومن هنا أصبحت الفسطاط فى موضع أشبه بالكوفة والبصرة فى العراق، كلها ترسم

مروحة حول رأس الجزيرة العربية، وكل منها يقع على نهاية واد صحراوى يخرج منها أو قربها وينتهى إلى ماء نهر كبير ولكن أساسًا دون أن تعبره.

من هناك أيضًا بدأت الجيزة تلعب دور رأس الجسر أمام الفسطاط - لاحظ اشتقاق الاسم من الاجتياز والمجاز - أى همزة الوصل بين العاصمة والصعيد، وورثت بذلك ظل منف - الظل فقط - ولذا ظلت دائمًا وحتى بدايات قرننا هذا حلة صغيرة مجمدة. وفى هذا الدور كانت جزيرة الروضة أشبه بنصف جسر طبيعى بين الجيزة والفسطاط، يكمله عادة نصف آخر معلق من السفن الثابتة..

ومن الضرورى هنا أن نذكر أن موضع الفسطاط فيما هو اليوم نهاية مجمع القاهرة المدنى جنوبًا إنما يمثل مَا كان فى حينه أضيق - وأسهل - عبور للنهر بين ضفتيه، فى عصر كان النهر يمثل حقبة مواصلات لا يستهان بها. ذلك أن شاطئ النيل الشرقى لم يكن يتبع حده الحالى، بل كان يبدأ من قرب مكان الفسطاط ثم ينحرف بشدة نحو

الشمال الشرقي إلى قلب القاهرة الحالي في الشمال، بحيث كان الثلث أو المثلثات العربي من الرقعة الحالية تقريبًا ماء وجزءًا من مجرى النيل.

ومعنى هذا أيضًا أن الضفة الشرقية لم تكن بمثل منها بمثل إضافة لليابس تكونت بالتدريج عبر القرون اتساعها الحالي، بل كانت أقل مساحة، والمثلث الغربي نتيجة لإرسابات النهر الطميية، بينما أخذ النهر نفسه يتراجع نحو الغرب بانتظام، وهذه هي الحركة التاريخية التي تعرف بهجرة مجرى النيل نحو الغرب. أما تلك الأرض التي انحسر عنها النهر فلم تكن ناضجة فيزيوغرافيًا على الفور، وإنما ظلت مواطئ رطبة تملؤها البحيرات والخلجان والمضاحل ولا تصلح للسكنى والتعمير إلا بعد قرون من الإرساب والنضج والصلابة. فمثلاً لم تظهر منطقة الأزبكية كأرض صلبة إلا منذ الفاطمية، ومنطقة باب اللوق إلا منذ الأيوبية.

وعند هذا الحد، يمكننا أن نكوّن تصورًا عريضًا لموضع منطقة القاهرة عامة. فالضفة الشرقية تحدها سلاسل

تلال تقترب من النهر فى الجنوب وتنفرج بعيدًا عنـه كلما اتجهنـا شمالاً هى جبـل المقطم الـذى ينتهى فى الشمال بـالجبل الأحمـر قرب العبـاسية. وحـواف هـذه السلسلة تتراوح بين ١٠٠ مـتر فى الجنوب، ٨٠ مترًا فى الشمال. وتخرج من السلسلة عدة بـروزات ناتئـة نحـو الغـرب كتلول ثـانويـة هى من الجنوب إلى الشمـال تلول عين الصيرة ثم زينهم فقطع المرأة.

فـإذا عرفنـا أن شاطئ النيـل هنا يقـع عمومًـا على منسوب نحو ٢٠ مترًا، أدركنا أن الضفـة الشرقيـة، التى تتسع كالمروحة شمالاً وتضيق جنوبًا، ينحدر سطحها كلما اتجهنـا من الصحراء إلى النهر، أى أن القطاع الشـرقى منها مرتفـع والغربى منخفض (كلمـة بولاق مثـلا أصلها بلاق وتعنى لغة «الأرض المنخفضة»)، بمثل ما أن الشرقى أقدم جدا فى تكونه بينما الغربى أحدث ويزداد حداثة كلما اقتربنا من النهر.

وعـلى العكس من هذا الضفـة الغـربيـة، فليس ثمـة حـائط تـلى، بـل تمتـد الأرض الـزراعيـة حتى هـامش

الصحراء، والأرض تنحدر لا نحو النهر بل نحو الصحراء ولكنه انحدار طفيف جدا لا يقدر إلا بالبوصات حيث يصل فى الضفة الشرقية إلى عشرات الأمتار، إلا أنه مع ذلك واضح للعيان كما يمكن للناظر أن يرى من فوق كوبرى الزمالك تجاه ميت عقبة.

وترتيبا على ذلك كله، فإن أرض الضفة الغربية سهلية منبسطة بعامة وكلها كانت أرضا زراعية، بينما الشرقية منحدرة تصلها نهايات الأودية الصحراوية والتلية التى تعرف السيول الشتوية المفاجئة والتى يعرفها أكثر سكان الأحياء الشرقية كالعباسية والجمالية حين تتحول شوارعهم المائلة إلى خنادق مائية مؤقتة. وبينما تمتد شوارع الضفة الغربية (باستثناء طريق الهرم) كطرق مسطحة موحدة المستوى، ينفرد القطاع الشرقى من الضفة الشرقية بظاهرة الشوارع السلمية حيث تتحول إلى درج حقيقى يذكرنا بشوارع المدن الجبلية فى أوربا وبخاصة حوض البحر المتوسط.

أخيرًا وعمومًا، كيف تبدو قيمة موضع القاهرة إذا وضعت فى الميزان؟ ثمة مزايا لاشك واضحة. فالضفة الشرقية محمية من ثلاث جهات بالنهر والتل، وهى مفتوحة من الشمال فقط. ثم ان وجود التلال الشرقية يوفر للمدينة مادة بناء ثمينة من الحجر مثلما يوفر لها النهر خامة الطوب. وارتفاع القطاع الشرقى يعوض عند البعد عن النهر بجفاف الهواء الصحى وحركته النشطة المنشطة، فى حين يتمتع القطاع الغربى بجبهة مائية منعشة ومسرطبة. وأخيرًا فان كثرة الجزر كثرة غير عادية فى المنطقة - كنتيجة لتغير مستوى الارساب فجأة مع الانتقال من الوادى الضيق إلى الدلتا الواسعة - هذه الكثرة توفر قواعد هامة لعبور النهر ولنمو المدينة.

نمو القاهرة بين ضوابطه ومحاوره

فى هذا الإطار الطبيعى الملائم إذن نستطيع أن نتتبع حركة المدينة التاريخية منذ العصر العربى. حين نشأت

الفسطاط فى أقصى الجنوب، قرب النهر والتل معًا، فـإنما كانت مدينة حربية أساسا، تنشد موضع حماية معلقـا على التـل ومحصنًـا بـالـطبيعـة. فكـانت فى النتيجـة مـدينـة أكروبوليس، أى مـدينة قمـة تل. (ومن الـطريف، وهو) بالتأكيد أكثر من صدفة، ان ديزموند ستيوارت مؤلف هذا الكتاب يذهب إلى حـد تشبيه جـامع ابن طـولون عـلى جبله بالبارثينون على الأكـروبول فى أثينـا!) وحين بنيت العسكر إلى الشمال الشرقى منها، ثم القطائع عـلى جبل يشكر فى نفس الاتجاه، وأخيرًا القاهرة المعزية التى بدأت كمدينة ملكية محرمة، فإنها لم تغير تلك الصفة الأكروبولية العسكرية أساسًا، فكـانت جميعها تلتـزم السفوح التليـة العالية فى الشرق، وكانت تعززها بخط دفاع وحماية آخر هو أسوار المدينة المتعددة والمتعاقبـة. وكل مـا حدث أنها كانت تزحف فى موضع جنوبى إلى موضع أكثر شمالية.

ومن الطريف، ما دمنا قد تحدثنا عن المدينة المسـورة وسـور المدينـة، أن نلاحظ أولا أن مصـر فى هذا الصـدد شذوذ عالمى نادر، وثانيًا أن القاهرة بدورها شذوذ نادر فى

مصر نفسها.. ففى العصور الوسطى وعهد الإقطاع كانت المدينة المسورة هى القاعدة العالمية طلبًا للحماية من الأخطار الخارجية والصراعات الإقطاعية الداخلية. ولكن حالات ثلاث فقط فى العالم لم تكد تعرف أسوار المدن بفضل حمايتها الجغرافية الطبيعية وتصفية النظام الإقطاعى منذ وقت مبكر: تلك هى بريطانيا واليابان ومصر وكلها جزر حقيقية أو مجازًا على ضلوع قارة يفصلها عن بحر الماء أو بحر الرمل. لقد كانت الصحراء - كما يعبر لويس ممفورد - هى السور الطبيعى لمصر. ولكنها لم تكن كذلك للقاهرة تمامًا. فقد كانت العاصمة بموقعها وأهميتها موطن الخطر الخارجى دائمًا والصراع الداخلى كذلك، فكان السور ضرورة استراتيجية منذ البداية وتعددت أسوارها وتحصيناتها واتسعت مع نمو المدينة، وذلك حين لم تعرف المدن الإقليمية المصرية السور أو الحائط عدا بعض الموانئ الثغور.

هذا عن نمو المدينة فى حضن التلال. وفى المراحل اللاحقة فقط بدأ يضاف إلى التوسع نحو الشمال، توسع

فى اتجـاه جديـد نحو الغـرب. فمع نمـو الأرض الطميية ونضجها الفيزيوغرافى على حساب النهر المتراجع غربًا، بدأ الاستثمار الزراعى ثم البنائى العمرانى يزحف غربًا. لقد بدأت المدينة تنزل هابطة من الكنتورات العـالية إلى الكنتورات المنخفضة بالتدريج. وبعد أن كـانت تتشبث بضلوع التـل ورأسه وتخشى الاقتـراب من النهـر حيث خطر الفيضان والاستبحار أو كما لو كانت تخجل منه -riv er - SHY أخذت تتحول من مدينة أكروبوليس معلقة إلى مدينة نهرية شاطئية مستوية. لقد تحررت المدينة من عقال الجبل.وإسار السور معًا وفى نفس الوقت.

وفى المحصلة، فلقـد أخذت رقعـة العمران والمنـطقـة المبنية تنمو فى اتجاهين لا فى اتجاه واحد، شمالاً وغربًا، أو قل على محور شمالى غـربى عمومًـا. وتلك هى الحركـة التاريخية الأساسية والمفتاح فى نمو القـاهرة، وهى حـركة مطردة وإيقاع ثابت، مهما تـوقفت المدينـة أو انتكست فى مراحل الجمود أو الانكماش.

وحتى أيـام الحملة الفرنسيـة ومحمـد عـلى كـان خط

الحسينية – باب الشعرية – بولاق يمثل أقصى حدود امتداد المدينة شمالاً، دون أن يعني هذا بالضرورة أن كل ما إلى الجنوب كان عمرانًا كاملاً وسكنى متصلة، بل كانت هناك فجوات شاسعة تتخلل المنطقة المبنية، ودون أن يعني كذلك انعدام العمران المبعثر الخفيف إلى الشمال ولقد كان محمد علي هو الذي اخترق ذلك الحد وتعداه شمالاً، نحو شبرا، كما كان عباس هو الذي بدأ العباسية عبر الحسينية. ومع ذلك فقد كان محمد علي نفسه هو الذي بدأ الاتجاه إلى جاردن سيتي لتكون سكنًا راقيًا لعائلاته، بينما أن حي الاسماعيلية لم يبدأ إلا أيام إسماعيل والتوفيقية أيام توفيق.

وبالمثل فإن النمو الأساسي في نطاق مثل الفجالة – الظاهر – غمرة – السكاكيني، أي جنوب خط المترو ومحطة مصر، لم يتم حقيقة الا بعد ١٩٠٠. وأحدث من ذلك كله بالطبع نمو الشمال الشرقي ابتداء من الدمرداش ومنشية الصدر عبر القبة بأقسامها ومنشية البكري حيث يتفرع إلى شعبتين: إلى الزيتون فالحلمية

فالمطرية فعين شمس شمالاً، والى مصر الجديدة جنوبًا. وهذا يصدق أيضاً على نمو الشمال ابتداء من روض الفرج إلى الساحل وشبرا (بأقسامها الحدائق والخيمة والمظلات والبلد).

ونفس الشيء يقال عن الضفة الغربية حيث ظلت الجيزة مدينة متواضعة إلى بداية القرن الحالي، وظلت تنمو شمالاً ببطء كشريط يزداد سمكًا وعمقًا، إلى أن دخلت فى موجتها المدية مع وبعد الحرب الأخيرة حتى وصلت عبر الدقى والعجوزة إلى امبابة فى عروض تناظر عروض حى الساحل على الضفة الشرقية أو تكاد. وبعد أن كان عمران الجيزة يقع دائمًا «جنوب» القاهرة، أصبح يقع «غربها» نصًا. وهنا نلاحظ أن نمو الضفة الغربية بأستثناء بندر الجيزة هو نمو طارئ حديث جدًا إذا قورن بالضفة الشرقية عمومًا.

وهنا لا تتأكد لنا حقيقة واحدة وهى أن النمو كله - على الضفتين - مندفع نحو الشمال، وإنما تتأكد كذلك حقيقة أخرى لا تقل مغزى وخطرًا وهى أن النمو

متوقف تمامًا إلى درجة الشلل فى الجنوب، وفى الضفتين أيضًا على السواء. فلم تتعد مصر القديمة حدودها المزمنة قرب أثر النبى، وكذلك الجيزة القديمة (البندر). وإذا كانت المعادى وحلوان على الضفة الشرقية تمثلان نموًا حديثًا وعصريًا، حلوان منذ اسماعيل كمدينة استشفاء، والمعادى منذ توسعت وتوطدت جالية الاستعمار البريطانى، فإنها تمثل ضواحى منفصلة عن جسم المدينة ولا تنقض القاعدة بقدر ما تؤكدها. وقل الشىء نفسه عن نمو منطقة الهرم حديثًا، فهى أقرب إلى النمو الشريطى الخطى على أطراف المدن Ribbon development.

والخلاصة أن الحدود الجنوبية لجسم القاهرة تمثل الثوابت الاستاتيكية Constants فى حركة المدينة، حيث تمثل الحدود الشمالية العوامل المتغيرة النامية والدينامية Variables وأن فى مجرد الفرق فى التسمية بين مصر القديمة فى أقصى الجنوب ومصر الجديدة فى أقصى الشمال لتلخيصا بليغا لكل تاريخ وحركة النمو داخل هذا

المجمع المدنى الحافل.

على أنه ليس يكفى أن نفسر هذا التناقض بين الشمال والجنوب بحتم الموضع المحلى وحده من اختناقه فى الجنوب وانفساحه السهلى فى الشمال. فلاشك أيضًا أن ثروة الدلتا الغنية من زراعة وانتاج، وانفتاحها بما يقع خلفها من موانى واتصالات خارجية تجارية، تمثل لا شك قطب جاذبية للعاصمة أقدر على تغذية صناعتها بالخامات وسكانها بالغذاء وأسهل اتصالا وأقدر على التصرف الخارجى. بل قد يمكن أن يقال إن نمو القاهرة شمالا فى لسانيه الأساسين شمالا وشمالا شرقا هو انعكاس بعيد فى نهاية المطاف لجاذبية الاسكندرية والسويس على الترتيب..

وإذا كان التناقض فى قوة النمو واضحًا صارخ الوضوح ما بين الشمال والجنوب، فهو على الأقل حقيقة مؤكدة ما بين الشرق والغرب أيضًا. ففى الشرق حائط المقطم يقف حائلا منذ العصور الوسطى يخنق كل إمكانيات النمو، حتى فى الوقت الحالى لا يمثل مشروع

مدينة هضبة المقطم أكثر من محاولة رمزية. أما غربًا فإن المدينة استعمرت النهر نفسه - أعنى جزيرتى الجزيرة والروضة - ثم عبرته لتجعل من الضفة الغربية شقيقة صغرى للشرقية تناظرها طولا وأن دقت عرضًا، ولتجعل من المجمع المدنى كله مدينة ضفتين تمتطى النهر كما يقال à cheval.

ومن المحتمل فى المستقبل أن يرجح معدل النمو فى الضفة الغربية معدله فى الضفة الشرقية نسبيًا، لأن الأولى هى جبهة ريادة العاصمة الآن وطاقة أو كوة رئيسية لتمددها. ويمكن أن نعبر عن هذا بطريقة أخرى فنقول إن دفعة النمو إذا كانت اليوم أقوى نحو المحور الشمالى فقد تتحول فى بضعة عقود الى المحور الغربى. وقد وصل عمق الضفة الغربية اليوم إلى بولاق الدكرور فى الجنوب وميت عقبة فى الشمال، وربما واصل نموه إلى الخط الشريانى للسكة الحديدية بين الوجهين.

وعند هذا الحد نستطيع أن نرى بسهولة أن المدينة اذ تزحف شمالا فى موجتها المدية العاتية، وبسرعة العاصفة

فى العقود الأخيرة خاصة، مع ثباتها المطلق أو شبه المطلق فى الجنوب، فهى إنما تنتقل بالتدريج مبتعدة عن الصعيد وملتحمة بالدلتا. أن الأصل فى القاهرة - عاصمة - أنها بموقعها ومصدر سكانها ووظائفها القومية وكضابط إيقاع بين أجزاء الوطن وأقاليمه، تنتمى إلى الدلتا بقدر ما تنتمى إلى الصعيد. ولكن الواقع المحقق الآن أنها أدخل فى فلك الدلتا وأشد التصاقا بها وزحفًا إليها..

ذلك وكأنما هى تزحف تدريجيًا مع رأس الدلتا (التى كانت إزاء منف وقت أن كانت العاصمة الفرعونية) والتى تزحف شمالا باستمرار. أو كأنما هى تزحف مع مصر الحديثة عمومًا، حيث يقتصر المعمور فى أقصى جنوب الصعيد (منذ خزان أسوان ولكن بالأخص مع السد العالى)، ويتمدد فى أقصى شمال الدلتا (مع استصلاح البرارى الذى سيصل بالأرض الزراعية قريبًا الى سيف البحر). أو - أخيرًا - كأنما هى ترمز إلى تناقص وزن الصعيد النسبى فى اقتصاد مصر وعمرانها بالقياس إلى الدلتا (الصعيد الآن لا يقدم إلا ٣٨٪ من

عائد الزراعة المصرية)..

وهذا ما يقودنا إلى وجه شبه آخر فى الشكل بين نمو القاهرة الكبرى وامتداد الأرض السوداء فى مصر. إذا أنت نظرت إلى خريطة القاهرة فلن تخطئ بالتأكيد شكلها الكأسى الخاص، فهى أولا وأساسا مدينة طولية أكثر منها عرضية، فبينما يصل امتدادها على المحور الطولى إلى نحو ١٣ كم، لا تزيد فى أقصى عرض لها عن ٧ كم، وتقل عن ذلك كثيرًا فى المتوسط وقد تصل الى حد الاختناق فى أقصى الجنوب. وبينما يأخذ النيل محورًا شماليًا جنوبيًا بعامة، ينفرج الخط الواصل بين مصر القديمة ومصر الجديدة إلى أقصى حد ممكن.. ويلاحظ أن جبهة الزحف شمالا لا تمثل خطًا واحدًا منتظمًا، بل يتقعر فى وسطه لأنه يتفنل أساسًا فى محورين هما كتلة مصر الجديدة - عين شمس فى الشمال الشرقى وكتلة شبرا - روض الفرج فى الشمال، هذه بحذاء الصحراء وهذه بحذاء النيل، وبين هذين اللسانين برزخ أو خليج عريض من الأرض الزراعية.

الشكل إذن مروحى بوضوح، تكمن خلفه ضوابط الموضع وتضاريسه الأولية، سواء أخذنا الضفة الشرقية على حدة أو إذا أضفنا إليها الغربية. وهذه اذن مروحة منشورة مفتوحة، يدها فى الجنوب. وهذا يذكرنا على الفور - وان يكن على تصغير شديد - بشكل الدلتا نفسها. وحتى لسانا النمو الشماليان السابق ذكرهما يكملان التشبيه بفرعى دمياط ورشيد! بل اننا إذا أضفنا الذيل المبتور من النمو المتقطع على استحياء فى الجنوب عبر المعادى وحلوان كيد قصيرة لمروحة العاصمة، لاقترب الشكل جميعًا من هيئة مصر عمومًا حيث يرسم الصعيد يدًا طويلة جدًا، ولكنها ليست قوية جدًا، لمروحة الدلتا. إن عاصمتنا لا تلخص كيان مصر البشرى فحسب، وإنما تختزل شكلها الجغرافى أيضًا فى بقعة أو فى كبسولة.

ماذا إذن عن توسع ونمو القاهرة الرأسى، بعد ذلك النمو الأفقى الطاغى؟ معه جنبًا إلى جنب تقدم بإيقاع متناغم. فتاريخ المدينة لم يكن تمديدًا للأطراف فحسب

بل وتكثيفا للداخل أيضًا. ولقد أتى على القاهرة حين من الدهر كانت تتخلل منطقتها المبنية فجوات وفراغات ضخمة من الخراب أو الخواء، وحتى أوائل القرن الماضى كان جسم المدينة مبعثرًا مخلخلا غير ملموم، ولكنه أخذ يلتئم بالتدريج. وبينما كانت الأطراف تنمو كفيللات مبعثرة وسط الحقول، كانت الفيللات فى الوسط تتحول الى عمارات، والعمارات تتناطح وتتلاحم وتتسابق إلى أعلى كالأشجار فى الغابة تتصارع من أجل الوصول إلى الشمس. وبين هذا وذاك جميعا توشك المدينة أن تغص وتختنق ولا تكاد تجد رئة خضراء أو مساحة مكشوفة. والناظر إلى خريطة المنطقة المبنية اليوم فى القاهرة قد يحسب خطأ أن بها فراغات غير مستغلة كتلك التلول المتقدمة فى عين الصيرة وزينهم وقطع المرأة فى شرق المدينة. ولكن الحقيقة إن هذه حدود المنطقة المبنية هناك، وانما تفصل بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات، أما المنطقة المبنية فكتلة متصلة لا انقطاع لها.

وفى ختام هذا الحديث عن النمو، لابد لنا من وقفة

تجيب على سؤال ملح: ما الذى أطلق المدينة من عقالها، خاصة منذ القرن الماضى، كمارد خرج من القمقم؟ لقد ظلت المدينة الوسيطة تحتل رقعة متواضعة محدودة فى شرق المنطقة، ولم تخرج من قوقعتها التاريخية والجغرافية إلا فى أواخر العصور الوسطى - وعلى استحياء ذلك. ثم مع القرن الماضى فقط تمددت تمددًا جديدًا تمامًا صوب النهر، ولم تزل خطاها تتسارع باطراد فى العقود الأولى من هذا القرن، ولكنها منذ الحرب العالمية الثانية وحدها انفجرت فى موجة مدية حقيقية هى منذ الثورة أسرع وأعتى منها فى أى وقت مضى. ونحن نستطيع أن نصنف هذه الفترات فى تاريخ حياة المدينة إلى مراحل ثلاث أساسية: الأولى هى المرحلة النووية، والثانية هى التكوينية، والاخيرة هى الانفجارية.

ولعل رقعة القاهرة قد نمت فى القرن السابق للحرب الثانية أى فى المرحلة التكوينية أكثر مما نمت طوال الألف عام منذ نشأتها العربية أى فى المرحلة النووية، بينما قد يزيد نموها بسهولة فى مرحلتها الانفجارية فى ربع القرن

الأخير عنه طوال القرن الاسبق عليه. لقد خرجت القاهرة عن وصاية الجبل الأبوية، وانساحت من المقطم إلى الهرم، ومن الصحراء إلى الصحراء، ومن حلوان إلى شبرا الخيمة، وبعد أن بدأت بحدود صارمة كالخط الهندسي هي سور المدينة أصبحت تتخلل المزروع وتخلخله كمدينة بلا حدود. ومن السهل أن نتتبع انعكاس هذا كله رقميًا في تعداد السكان، ولكن يكفي هنا أن نذكر أن المدينة التي بدأت مع محمد على ربع مليون وانتهت معه ثلث مليون، قد تعدت الآن الخمسة ملايين.

مرة أخرى: لماذا، وما هو الزناد الذى أطلق هذا النمو المريد؟ ثمة على الترتيب عاملان ضابطان أو محركان، لا يكفى أى منهما وحده تفسيرًا إلا لمرحلة محددة. الأول هو الموضع والثانى هو المواصلات. فمن السهل أن ترى أن النمو فى المرحلة النووية يتفق مع نمو رقعة الموضع تجاه النهر ومع تراجع النهر نحو الغرب بالتدريج. ولكن لا شىء يفسر المرحلة التكوينية، فضلا بالتأكيد عن الانفجارية من بعدها، إلا ثورة المواصلات

الحديثة. فحتى محمد علي، كانت الدواب هي وسيلة النقل الأساسية داخل المدينة، والمركب الشراعي وسيلته خارجها. كان نفس الحركة البشرية قصيرًا للغاية، ومعه كان توسع المدينة قاصرًا بالضرورة. ثم بدأت سلسلة تاريخية: من الدواب إلى عربات الخيل الى خطوط «سوارس» المنتظمة إلى الترام ثم أخيرًا السيارة الخاصة والعامة. وحدود القاهرة العمرانية في أي لحظة خلال هذه المرحلة هي وظيفة لهذه الوسيلة أو تلك.

ثم سؤال آخر وأخير ينبثق من سابقه: هذا النمو، هل هو صحي سليم تمامًا؟ أيسير في أنسب خطوطه واتجاهاته الأكثر ترشيدا؟ لن نقف هنا عند قضية تضخم العاصمة في جسم البلد حيث بلغت الخمسة ملايين من ثلاثين مليونًا أو يزيد، ولن نقول «الورم الأكبر The great Wen» كما قال كوبت Cobbet عن لندن في عصر الصناعة. فمن المحتمل جدًا أن القاهرة تعاني من إفراط المتروبوليتانية مثلما تعاني مصرُ نفسها من إفراط السكان بعامة. ولكن لعل أخطر من هذا النمو – الشيطاني نوعًا

Mushroom – ملمح ملح مزمن قد يحمل شبهة النمو السرطاني ذاته.

والإشارة هنا هي يقيناً إلى توسع الرقعة المبنية على الأرض الزراعية الثمينة في عالم جغرافي متناه يعاني من مجاعة أرضية. فكثير من أبناء القاهرة يذكرون ولاشك في مدى عمرهم آلاف الأفدنة الزراعية في شبرا والجيزة (بمعناها الواسع) وكيف كانت طرق المواصلات والترام تمضي لأميال وسط مزارع ومشاتل الفواكه والزهور والخضروات الكثيفة، ظلت تتضاءل وتنكمش بالتدريج وظل بعضها يقاوم كجزر صامدة وسط بحر المباني. ولكن هذا كله تحول اليوم إلى مبان كثيفة ونفيت الزراعة الى آفاق بالغة التطوح والبعد. وإذا كان هذا لا يصدق على لسان النمو في اتجاه مصر الجديدة فهو للأسف صادق على شعبته الثانية في اتجاه عين شمس حيث لا يحاذي امتداد العمران حافة المزروع وإنما يترامى عليه، لا يجاوره بل يجاوزه.

إن المدينة تأكل سكانها كما يقال، ولكنها هنا تأكل

أرضها أيضًا، فهى من قوارض الأرض الزراعية، وبشراهة ذلك. وقد آن أن يكون الرمل للعمران والطين للزراعة. وفى شمال شرق القاهرة تجاه العباسية ومدينة نصر ومصر الجديدة محور الرمل الأنسب، بينما قد يكمن الحل بعد ذلك فى الضواحى المنفصلة فيزيقيا عن جسم المدينة بحيث تقوم لا فى عرض الوادى وانما على حافتى الصحراوين، خاصة على طول مخارج المدينة الأساسية فى طريقى الاسكندرية والسويس الصحراويين.

شبكة الخطة وشبكة المواصلات

حتى النظرة العابرة إلى خريطة القاهرة، بشبكة شوارعها ومربعاتها السكنية، لا يمكن أن تخطىء ثلاثة ملامح بارزة فى خطة العاصمة. أولها وجود عنصرين أساسيين يتقاسمان رقعة المدينة : تخطيط - أو بالأصح لا تخطيط - عشوائى تلقائى يمثل النمط العتيق فى المدن بل والقرى المصرية عامة، ويمثل فى العاصمة مناطق النواة

القديمة منها، وتخطيط هندسى مصمم منتظم فى أشكال مربعة أو مستطيلة أو مضلعة أو دائرية، يمثل بدوره العنصر العصرى «الأوربى» الجديد فى تركيب المدن المصرية الذى أدخل منذ القرن الماضى فقط. وهذه الثنائية الأساسية فى الخطة ترمز بسهولة وبلاغة إلى الثنائية الحضارية فى مصر المعاصرة حيث يتعايش القديم والجديد والأصيل والدخيل.

الملمح الثانى هو سيادة مساحة التخطيط الهندسى الحديث سيادة حاسمة بالنسبة الى مساحة اللاتخطيط العشوائى القديم. وقد يبدو هذا غريبًا نظرًا لحداثة عهد التخطيط الهندسى المنتظم، ولكنه فى الحقيقة يلخص – فى نظرة – قصة نمو المدينة الحديث حيث وجدنا أن الرقعة الكبرى من كتلة المدينة هى أساسًا بنت القرن الاخير والمرحلتين التكوينية والانفجارية فى تاريخها. أضف إلى هذا أن كثيرًا من عمليات التقويم والتهذيب الهندسى فرضت على رقع واسعة من مناطق التخطيط القديم، مما يخفف من انتشارها وإن لم يخف آثارها ثالثًا، وأخيرًا،

فمن الواضح أن مناطق الخطة العشوائية القديمة تنحصر أساسًا فى أطراف المدينة القديمة خاصة فى الشرق والجنوب، وإن وجدت منها جيوب شاذة فى الشمال أو الوسط. وعلى أية حال، فإن هذا الوضع أوضح جدًا فى الضفة الغربية منه فى الشرقية، حيث يقتصر هناك على أقصى الجنوب بصرامة ويسود التخطيط الهندسى كل الشمال. ويعنى هذا فى نفس الوقت أن القديم يرتبط بالكنتورات الأعلى من المدينة، بعكس مناطق التخطيط الهندسى الحديث.

وهذا الملمح الأخير كله يتفق إلى حد كبير مع قانون الخطة فى المدينة المصرية عامة، حيث نجد دائمًا كتلة قديمة عشوائية فى القطاع الجنوبى تقوم على ربوة صناعية مرتفعة محدبة كطبق مقلوب، بينما تترامى تحت أقدامها فى القطاع الشمالى وعلى مستوى الأرض الطبيعى رقعة من التخطيط العصرى المنتظم. فالقطاع الجنوبى هو نواة المدينة قبل العصر الحديث، والشمالى هو النمو الحديث فى القرن الأخير. وتتناسب مساحة كل من القطاعين إلى

الآخر بحسب خطة المدينة من النمو والتضخم فى الفترة الحديثة. أى أنه كلما زاد نمو المدينة ودرجة انفجار هذا النمو، قلت نسبة مساحة النواة العشوائية القديمة إلى مساحة التخطيط الهندسى الحديث - والعكس.

فى ضوء هذه المؤشرات الأساسية، يمكننا الآن أن نتتبع خطط القاهرة بشىء من التفصيل.. ولنبدأ باللاتخطيط القديم. هذا نوع من الخطة البدائية الفطرية التى تظهر تلقائية غير عامدة، خطة بلا تخطيط كما قد نقول، تبرز من مجرد تجمع المبانى معًا. وهى فى جوهرها خطة القرية المصرية والتى لا تخلو تمامًا من منطق، بل ومنطق هندسى، ولكنه باهت بالغ التقريب. فثمة حول الحلة طريق دائرى ولكنه غير منتظم (داير الناحية) تخرج منه إلى قلب المنطقة المبنية عشرات من الطرق الضيقة والحارات التى تنتهى إلى نهايات مسدودة فى قلب البلد - أى أزقة مغلقة - والتى تتلوى وتتفرع وتتخلل الكتلة المبنية بدرجة أو بأخرى. والعشوائية بادية لاشك فيها، ولكن خلفها تكمن جرثومة الخطة المتشعمة أو

الدائرية المتشععة بصورة أو بأخرى radio-concentric.

وتنتشر هذه الخطة البدائية أكثر ما تنتشر فى القطاع الشرقى والجنوبى من القاهرة شرق النيل ابتداء من باب الشعرية والأزبكية والظاهر والحسينية فى الشمال، حتى السيدة زينب وطولون والسيدة نفيسة جنوبيًا. ثم تعود فتظهر فى مصر القديمة فى أقصى الجنوب. وهذه بالفعل هى القاهرة القديمة والأحياء التاريخية والتقليدية التى تستمد طابعها من ضيق الأزقة والحوارى المسدودة والتوائها وتعرجها الشديد، الذى يضاعف منه تضرس الطرق بسبب الموضع التلى وتحولها أحيانًا إلى طرق سليمة، والذى يضاعف دوره من كثافة المساكن والسكان ودرجة التزاحم. والكل ينتهى إلى تيه لابرنثى من شبكة طرق لا تصلح للمواصلات الحديثة بحال. من هنا كان التهذيب والتقويم بتوسيع وفتح كثير من الحارات والشوارع، أى بعملية فرض أو مزاوجة مفروضة بين اللاتخطيط والتخطيط. والواقع أن هذه العملية واسعة الانتشار فى كل هذا النطاق.

ومن طريف المفارقات هنا أن نلاحظ أنه بينما تبدو

أحياء شرق القاهرة ضائعة فى خطتها المضطربة العشوائية نجد إلى الشرق والجنوب منها تواً أو وشيكاً مساحات من التخطيط الهندسى التنظيم الدقيق تغطى رقعة كبيرة من خريطة المدينة. على أن هذه لا ينبغى أن تخدعنا، فإنما هى مدينة الأموات - المقابر والجبانات المترامية فى حى الخليفة وفى قايتباى والغفير - التى تقسمها شوارع منتظمة مهندسة وتحمل كما لاحظ ديزموند ستيوارت بدهشة أسماء وأرقاما !

ثم نعود فنقابل توزيع الخطة العشوائية تلك، مع نفس محاولات التعديل وجراحة التجميل التى يفرضها تنظيم العاصمة، فى حى بولاق، حيث يبدو كجزيرة شاذة وسط التخطيط الهندسى، ثم لا نلقاها بعد ذلك إلا عبر النهر فى أقصى الجنوب من الضفة الغربية، أى فى نواة الجيزة القديمة (البندر) حيث تتنافر بوضوح صارخ مع بقية التخطيط الهندسى المنتظم إلى الشمال.

وإذ ننتقل إلى التخطيط الهندسى الحديث، الذى يغطى بقية رقعة العاصمة فيما عدا بعض جزر وأسافين

قزمية متفرقة من التخطيط العشوائي على أطراف المدينة هي القرى والعزب السابقة التي أغرقها وابتلعها المد الحديث، كمنية السيرج وبعض العزب المبعثرة في شمال شبرا، وقرى كإمبابة وميت عقبة وبولاق الدكرور في الضفة الغربية، إذ ننتقل إليه نجد صورة مختلفة تمامًا، بسيطة جدًا ولكنها بالغة التعقيد جدًا. فالمدينة هنا عبارة عن موزايكو لا نهائي من وحدات مساحية ذات أشكال هندسية منتظمة تتراوح بين المربع والمستطيل وقليلاً ما تجنح إلى الدائرة أو المضلع، ولكنها دائمًا خطوط هندسية وزوايا قائمة تتألف من مربعات سكنية مماثلة في هندسيتها. أما التعقيد فمصدره أن هذه الأشكال المنتظمة القائمة الزوايا لا تتبع في توجيهها بالنسبة للجهات الأربع الأصلية محورًا واحدًا باستمرار، كما هو الحال في المدينة الأمريكية مثلاً، وإنما تتبع - حرفيًا - عشرات وعشرات من المحاور التي تختلف من رقعة إلى أخرى، وتستقل بها كل واحدة عن الأخرى كأنها صفحة ألغاز Jig-saw. ومن هنا قلنا بسيطة ومعقدة في آن واحد. ولا يستثنى من ذلك إلا المعادي وحلوان حيث محور

توجيه الخطة المربعة الصارمة موحد بصرامة أكثر فى كل المنطقة المبنية.

وإذا كانت المحاور القاعدية التى تحكم تلك الرقع الشطرنجية اللامتناهية متنافرة كل التنافر، فالمهم أنها لم تتحدد اعتباطًا، بل هى من وحى وتوجيه ضابطين أساسيين: النهر، ذلك الشريان المحورى الذى تطل عليه واجهة كبيرة من المدينة، والشوارع الرئيسية أى الطرق الشريانية التى تفتح الأحياء وتمثل مفاتيح الحركة فيها وبينها.

فأما النهر فموجه حاسم وحتمى. فسواء على الضفة الشرقية أو الغربية، ولكن على الأخيرة بالأخص، يجرى عدا الكورنيش وبعده شارع رئيسى (ممتطيًا ظهر جسر الطراد عادة) يمتد بطول النهر ويحاذيه، كشارعى الجيزة والقصر العينى على الترتيب. ولما كان للنهر تعرجاته وانحناءاته، فإن ذلك الشارع يتبعها بأمانة. وكذلك تفعل الشوراع الثانوية الموازية إلى الداخل. ولما كانت الشوراع العرضية عمودية على الطولية، فإن شبكة

الشوارع برمتها تظل تتفاوت وتتغير فى محاور اتجاهاتها الأصلية من قطاع إلى آخر بحسب تعرجات النهر الحاكمة.

خذ كل الضفة الغربية من الدقى حتى إمبابة، ولن تجد هذه القاعدة تبديلاً. وكذلك الشرقية جنوب ميدان التحرير وبعمق سكة حديد حلوان: الشوارع الطولية تحاذى النهر، والعرضية تتعامد عليه وعليها. وبالمثل فى جزيرة الروضة، حيث توازى الشوارع الطولية شاطئى الجزيرة الاثنين، حتى إذا ضاقت الجزيرة فى الجنوب تبعت الخطة محور أحد الشاطئين دون الآخر، فتتكون شرائح مثلثة شاذة. ونفس الشىء واضح فى فم الخليج وأبو السعود شمال مصر القديمة، مثلما هو فى الشمال فى روض الفرج والساحل عمومًا.

أما عن أثر الشوارع الرئيسية على الخطة فأوضح فى الداخل، بعيدًا عن أثر النهر. فهذه تصبح العمود الفقرى الذى تركب عليه - بزوايا قوائم - تفاصيل الخطة الهندسية، فإذا انحرف العمود انحرفت معه

واتجهت بحسب توجيهه. أما مسارات تلك الشرايين فتحددها المواقع النسبية بين النقط الاستراتيجية فى المدينة، أو ربما ضوابط المواضع القديمة كالترع المحفرية التى ردمت وتحولت إلى بوليفارات وجادات رئيسية كالخليج المصرى (شارع بورسعيد الآن) والترعة البولاقية (شارع الترعة البولاقية).

والأمثلة عديدة. ففى شبرا محور مستقيم هو شارع شبرا، ومحور منحرف هو شارع الترعة البولاقية، وكل تفاصيل الخطة المربعة فى الحى برمته تعكس اتجاه كل منهما. ولكن المثل الكلاسيكى هو شمال شرق القاهرة ابتداء من غمرة والظاهر حتى مصر الجديدة وعين شمس، حيث المحور الحاكم هو مترو خط الضواحى. ففى كل هذا النطاق المترامى ستجد خطط الشوارع كلها مربعات منتظمة، ولكن على عديد من المحاور المتنافرة جدًا. غير أن هذه جميعًا إنما تتحدد بدورها بنقط ارتكازها أو قل مفاصل ارتكازها على طريق المترو، الذى ينحنى ويتعرج بحسب مساره ووجهته. والنتيجة أن منطقة مثل غمرة تأخذ مربعاتها السكنية محورًا يوشك أن

يكون شرقيًّا غربيًّا، بينما أن منطقة كالمطرية وعين شمس ينقلب فيها المحور إلى شمالى جنوبى، فى حين يتعدل فيما بينهما بالتدريج كالبندول.

هذا، وتمثل الزمالك - النصف الشمالى من الجزيرة - حالة طريفة، ففيها يجتمع أثر النهر والشارع ليدمغا الخطة بطابع فذ. فالشوارع الطولية تتبع محور الشارع الرئيسى الحاكم الذى يقطع الجزيرة بين كوبرى ٢٦ يوليو (أبو العلا) وكوبرى الزمالك، وبذلك تتقاطع الشوارع الطولية والعرضية بزوايا حادة لتترك بينها أشكالا هندسية نادرة كالمعين وشبه المنحرف.. إلخ، بينما إلى الجنوب من شارع الكوبريين تسود شبكة مربعات منتظمة تتوازى معه وتتعامد عليه نصًّا.

وينبغى أخيرًا أن نذكر نمطًا خاصا ومحليًّا من التخطيط الهندسى، لا يتبع مبدأ الزوايا القائمة بقدر ما يتبع الدوائر المتقاطعة والأقواس المتداخلة. ونعنى بهذا خطة الحدائق الإنجليزية English Gardens، التى تنحدر أصلًا عن فن تخطيط البساتين Landscape gardening ففى

جاردن سيتى وحدائق القبة نجد خطط الشوارع كأقواس منحنية أو كدوائر متقاطعة متعددة المراكز. وبقدر ما تعطى هذه من منظور معمارى فخم ومبان انسيابية فى لاندسكيب الحى، تعطى من مشاكل المواصلات. فهاتان المنطقتان متاهتان من أشق قطاعات العاصمة لسكانها ولغير سكانها على ما نعلم.

وإذا نظرنا إلى مناطق التخطيط الهندسى فى العاصمة بعامة، أمكننا أن ندرك من تعدد محاور توجيه قطاعاتها المحلية أنها لم تخطط أو تنشأ فى ظل خطة عظمى موحدة بل أتت بالقطاعى مع النمو الجزئى. ولهذا فهى تترابط وتتماسك مع بعضها البعض بطريقة رديئة مفككة غالبًا، والأغلب أن تترك فيما بينها مساحات وجذاذات شاذة الشكل أو حادة الزوايا.

وصحيح أن هذا التعدد والتنافر فى محاور التوجيه يخفف من تنميط الخطة ورتابة الأحياء والشوارع، كما يعنى تعدد التوجيه بالنسبة للشمس وللرياح فيعطى فرصًا أكثر للتهوية والإشعاع والظل، كما يمنع تحول

المدينة إلى تيارات للرياح الشمالية السائدة مثلاً. ولكن نقطة الضعف الكبرى أنه يترك ترابط المدينة العضوى عن طريق المواصلات ضعيفًا مفككًا. وينم عن هذا ويشى به محاولات موضعية هنا وهناك لفرض مجموعة من الشوارع المتشععة على بعض تلك الخطط الهندسية المربعة، تتحول بها إلى شىء أشبه بالخطط الدائرية المتشععة أو قل المضلعة المتشععة، كما فى الاسماعيلية فى وسط البلد وكما فى وسط الروضة وفى العجوزة ثم السكاكينى بالظاهر، ولكن بالأخص فى مصر الجديدة.

غير أن هذا غالباً ترقيع موضعى أوتحايل محلى، ومن المحقق أن القاهرة نمت بالقطاعى ولصقت أجزاء خطتها إلى بعضها بالتقسيط وبلا إطار عام. فإذا أضفنا إلى ذلك مشكلة المناطق العشوائية المختنقة، مع ضخامة رقعة العاصمة عمومًا، لكان حقًا أن يقال إن القاهرة من المدن التى يصعب التعرف على أجزائها والحركة فيها. ولكن هذا أدخل فى باب المواصلات، وهو ما ينقلنا إلى شبكة النقل العاصمية.

* * *

رغم بعض الشوارع الرئيسية التى تحاول أن تصحح أخطاء الخطة المربعة المتعددة المحاور وأخطاء اللاتخطيط العشوائى، إلا أننا لا نستطيع أن نتحدث عن خطة فوقية متشععة على مستوى العاصمة ككل. وهناك أكثر من بؤرة تتشعع منها مجموعات من الشوارع الرئيسية هى التى تتبناها خطوط المواصلات شبكة مفضلة لها. ولعل أهمها محطة مصر حيث تخرج منها شرايين شارع شبرا شمالاً، وبولاق غربًا، والجلاء جنوبًا بغرب، الجمهورية جنوبًا (إبراهيم سابقًا)، ثم شارع رمسيس بوابة وعنق زجاجة كل ضواحى شمال شرق القاهرة. وتقدم العتبة بؤرة أخرى، فميدانها مصب لحركة شرق المدينة: شارع الجيش إلى العباسية، شارع الموسكى - جوهر إلى الجمالية، شارع الأزهر إلى الغورية والدراسة، شارع القلعة إلى القلعة والخليفة. وميدان باب اللوق والسيدة زينب بؤر أخرى.

على أن هذه الحزم المتشععة لا تؤلف فيما بينها خطة متشععة بمعنى الكلمة، ولو أن الملاحظ أن شبكة خطوط الترام كانت تقليديًا وحتى قريب تنتخب لها من الشوارع

ما يرسم خطة متشعبة بـارزة، لا سيما من مـركزين همـا ميدانا محطة مصر والسيدة زينب.

وعـدا هذا فينبغى أن نـلاحظ أثر مـواقـع الكبـارى النهرية على تقنيل شبكة المواصـلات. فعلى جـانبى النهر فى كل من كوبرى التحرير وكوبرى الجلاء يتحدد موقع حزمة كثيفـة من محاور الحـركة والنقـل، بل إن كـلا من هذين الميدانين يشكل فى الواقع بوابة ضفته الحقيقية على النهر. ومثل هذا يقال عن كوبرى ٢٦ يوليو والزمالك فى الشمـال، وكوبـرى الجيزة والملك الصـالـح فى الجنـوب، بـدرجات متفـاوتة. والحقيقـة أن مواقـع هـذه الكبـارى المتناظرة والمترابطة، التى هى أعنـاق الزجـاجة الحـاسمة والخانقة بين ضفتى النهر، هى التى تحـدد معظم الشـرايين العـرضية التى تقـطع المدينـة من طرف إلى طـرف. والتى تعانى القاهرة من قلتها بوضوح.

ولأن القاهرة مدينة طولية أكثر منها عرضية، فإن أهم محاور وشرايين الحركة هى الشمالية الجنوبيـة التى تخترق بـالضرورة قلب المـدينة فيختنق بهـا. وهذا هـو المحـرك

الأساسى خلف فكرة إنشاء طريق دائرى يلف بأطراف المدينة دون أن يخترق قلبها، كما يتمثل فى شارع بورسعيد، أطول شوارع القاهرة الآن، والذى يرتبط أساسًا بشرق المدينة القديم، وكذلك شارع صلاح سالم الذى شق حديثًا.

من كل هذه الزوايا يتضح لنا بجلاء أن مشكلة المواصلات فى العاصمة لا انفصال لها عن مورفولوجيتها وهيئتها الجغرافية البحتة. ويقف فى مقدمة هذه الضوابط الجغرافية اثنان. أولًا، انشطار المدينة إلى شقين أو ضفتين، الأمر الذى يجعل على الفور من كبارى النهر أخطر نقط استراتيجية حرجة فى تدفق الرحلة اليومية إلى العمل. ثانيًا، اتخاذ أطراف المدينة الشمالية شكل لسانين أومثلثين ضخمين فى شبرا – روض الفرج وفى مصر الجديدة – عين شمس، يتصلان بجسم المدينة فى أضيق رءوسهما، أى بأعناق زجاجية مختنقة على التو. وهذا النمط بارز جدًا فى الحالة الأخيرة خاصة حيث تبدو كمثلث مسحوب مدبب يكاد أن يكون منفصلًا إلا من عنق دقيق عند كوبرى القبة. فى كل هذه المواقع بنوعيها، كبارى النهر وأعناق

الضواحى، تتأزم مشكلة المواصلات إلى حد الاختناق.

على أن الذى يضاعف منها أن كل تلك الأطراف فى الضفة الغربية عمومًا وفى شمال الضفة الشرقية هى باستثناءات معينة أحياء سكن أكثر منها أحياء عمل. ثم هى تتضاعف مرة أخرى كالربح المركب بطبيعة هذه الأحياء. فإن كانت شعبية لا تملك كثافة السيارات الخاصة، فهناك كثافة السكان العالية التى تنعكس على وتترجم إلى كثافة السيارات العامة (لسان كتلة شبرا - روض الفرج). وإن كانت سكنًا راقيًا أقل كثافة سكان، فهناك كثافة السيارات الخاصة (لسان الشمال الشرقى، والضفة الغربية).

ولا تقل شبكة الخطوط الحديدية داخل المدينة مغزى وخطرًا عن شبكة النقل الأخف. ويمكن ابتداء أن نزعم أن محطات السكك الحديدية فى المدينة المعاصرة هى بمثابة بوابات مدينة العصور الوسطى وإنما انتقلت من السور الهامش إلى الوسط. إنها «مداخل» المدينة ولكن فى الداخل. ولعلها أكثر من صدفة أسماء «باب» الحديد،

و«باب» اللوق، كأنما تلح لتذكرنا بأنها وظيفة وإن لم تكن موقعًا وريثة «باب» زويلة أو «باب» النصر مثلاً.

ومواقع محطات السكك الحديدية فى القاهرة استراتيجية تمامًا، فمحطة مصر؛ (وكوبرى الليمون التابعة) ومحطة باب اللوق تحتل مفاتيح المدينة الجغرافية، وتخرج منها الخطوط القومية أو خطوط الضواحى فى اتجاهات ثلاثة، شمالاً وشمالاً شرقًا وجنوبًا.

ومهم أن نلاحظ أن كلا منها يضاعف بمحطة مركزية كالخلية العارمة لشبكات الأوتوبيس، فهى أقطاب مغنطيسية للمواصلات عمومًا ونقط انقطاع وتغيير فى وسيلة المواصلات (من السيارة إلى القطار أو العكس). غير أن هذا مما يفاقم من مشكلة الازدحام، بمثل ما أن خطوطها الحديدية تمزج نسيج المدينة وتخلق اختناقات حادة فى تدفق حركة المرور كما يتبلور خاصة على طول خط مترو شمال شرق القاهرة.

وقد انعكس تأزم مشكلة محطات السكك الحديدية فى المدينة فى أن التكامل والتعايش بين القطار والسيارة

تحول أخيرًا إلى صراع انتصر فيه القطار في محطة مصر حيث نقلت محطة أوتوبيسات الأقاليم بعيدًا الى أطراف المدينة في شبرا المظلات بعد معركة تخطيطية محتدمة بين عوامل الطرد والجذب المركزية. أما في محطة باب اللوق فيبدو أن القطار هو الذى سيخسر الحرب، إذ تقرر مبدئيًا في مشروع خطوط الانفاق المزمع أن تنقل نهاية خط الضواحى جنوبًا إلى كوبرى الملك الصالح.

من كل هذه الخيوط المعقدة إذن تنسج مشكلة المواصلات اخطبوطها الخانق المزمن في العاصمة التى يئست نهائيًا من الحلول السطحية - أعنى على سطح الأرض - فلجأت إلى الحلول تحت الأرضية كما تتمثل في فكرة مترو الأنفاق الذى يعكس مشروع خطته المبدئية شكل المدينة الطولى أساسًا. إلا أن جذور المشكلة تكمن في أكثر من قضية، منها الفارق الحضارى: فشوارع المدينة خططت في عصر - ولعصر - ما قبل السيارة وما قبل الصناعة، وهى الآن تعانى بالضرورة من تصلب الشرايين واحتقان الدورة الدموية.

ولقد أثبتت تجربة العواصم الكبرى المماثلة أن خطوط الأنفاق ليست بالضرورة الكلمة الأخيرة فى القضية، ولا تلبث مشكلة المواصلات السطحية أن تعود. فلندن وباريس تملكان خطوط انفاقها منذ عقود وعقود، وكذلك نيويورك، ومشكلة المواصلات السطحية لم تزل مزمنة. ولعل بعض الدرس المستفاد هو أن القاهرة الكبرى بحاجة حقيقية - مع أو قبل الأنفاق - إلى عملية «هسمنة Haussmannisation»، كما تسمى، على غرار ما عرفت باريس فى السبعينات الماضية، جريئة واسعة الخيال دون أن تكون راديكالية بتارة بالضرورة، فتفرض على أرضية خطتها الفسيفسائية نظامًا متشعبًا، متعدد البؤرات - منعًا لتركيز المشكلة فى نقطة واحدة - من البوليفارات المحورية الشريانية ذات التوقيع الاستراتيجى بحيث تتحول هيدرولوجية النقل فى قلب المدينة إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب.

كذلك لا مفر من إعادة توزيع العمل والسكن فى محيط القاهرة الكبرى. فتركيز العمل فى القلب التجارى المركزى (.C.B.D كما يسميه الأمريكيون) وغيابه إلى

حد بعيد فى الأحياء السكنية فى الأطراف عامل جذرى وقاعدى. ولعل من الضرورى أن يتحول قلب المدينة نفسه هو الآخر إلى نهر قليل الروافد كثير المصاب، بخلق نويات جديدة فى الأطراف كمراكز ثانوية subcentralisation، تخفف الضغط عن القلب المركزى وبالتالى تخفف من كثافة الرحلة إلى العمل.

التركيب الوظيفى

المدينة أى مدينة حزمة من الوظائف فى التحليل الأخير، وليست المؤسسات والمبانى إلا أوعية مادية لتلك الوظائف المركزية.. غير أن هذه لا تتعايش معًا إلا بعد صراع على المكان، فالوظائف تتنافس فيما بينها على الموقع والموقع الممتاز أو الأنسب من جهة نظرها، وتحصل عليه الوظيفة الأقدر التى تدفع أكثر. ولما كانت قيم الأرض والعقارات والإيجارات أعلى ما تكون فى قلب المدينة الضيق المكتظ، فإن وظائف المدينة تتنضد (أى تتفنط) تلقائيا بالتفاعل والشد والجذب بين مجموعة من

القوى الطاردة المركزية centrifugal تطرد الأضعف إلى أطراف المدينة، وبين مجموعة من القوى الجاذبة المركزية centripetal تجذب الأقوى إلى القلب..

والوظائف مجموعتان عريضتان: وظائف عمل وإنتاج كالتجارة والإدارة والصناعة، ووظائف خدمات كالتعليم والدين والصحة والترفيه. غير أن بين المجموعتين حلقة وصل هامة هي السكن. والسكن وظيفة بالمعنى الصحيح لا شك، بل هو الوظيفة التي تغطي أكبر رقعة من مساحة أي مدينة في العادة. ومصدر أهميتها أنها المفتاح والمدخل الطبيعي لوظائف الخدمات، فهي غالبًا الإطار الذي تدور فيه وتتشكل به قليلاً أو كثيرًا. ومع ذلك فالسكن وظيفة من نوع خاص جدًا، ربما قلنا وظيفة سالبة تمييزًا لها عن الوظائف الموجبة من إنتاج أو خدمات. ولهذا فلعل من الخير لنا أن نعالجه على حدة بحسبانه طبوغرافية المدينة الاجتماعية، حيث تمثل الوظائف الموجبة طبوغرافيتها الاقتصادية.

* * *

وفي القاهرة، إذا بدأنا بالوظيفة التجارية التي تلعب

دورًا حيويًا فى كيانها كعاصمة قومية فضلاً عن كونها مدينة كبرى، أمكننا أن نميز بين ثلاثة أنواع من التجارة تمثل فى الحقيقة ثلاث درجات من المركزية. فهناك أولاً التجارة المركزية التى تتكدس وتتزاحم بلا هوادة فى قلب المدينة. ويلمس القاهرى نبض التجارة المركزية فى مدينته بالتدريج من مشارف شارع الجلاء ورمسيس حتى أطراف ميدان التحرير وباب اللوق من ناحية، ومن شارع الجمهورية إلى العتبة من ناحية أخرى، حتى الموسكي وما وراءه تجاه الغورية وشارع الأزهر.. الخ ففي هذه الدائرة تتقاطر تجارة التجزئة والجملة السلعية والمالية، الحديثة العصرية والقديمة الوطنية. هنا كل مراكز المؤسسات والشركات الهامة والجمعيات التعاونية والتأمين والبنوك الرئيسية والصيارف والمحال التجارية الضخمة التى تتجاذب حولها المحلات الصغيرة. وهذه المنطقة التجارية تمثل الجهاز العصبى المركزى للوظيفة التجارية لسكان العاصمة واقليم العاصمة جميعًا.

من أخص خصائص هذه المنطقة أن تجارة الجملة، الأقل اتصالاً بالجمهور المباشر والتى تحتاج إلى

مساحات أوسع، تنزوى نوعًا إلى أطرافها الهامشية تاركة عين المنطقة لتجارة التجزئة وتكتفى هى بأن تقف خلفها لتغذيها وتخدمها. أما التجزئة فتعيش على الموقع الاستراتيجى البارز والدعاية المكثفة وتتعامل مع الجمهور مباشرة وقد يكفيها موطئ قدم صغير ولكنه حساس وباهظ الثمن أو الإيجار. فشارع الجلاء ورمسيس تجاه محطة مصر وتجاه التحرير فى منطقة معروف تسودها مخازن الجملة خاصة من قطع غيار السيارات والإطارات والأدوات الكهربية. وفى أركان ميدان الفلكى تتركز تجارة إطارات السيارات. وفى مداخل شارع القلعة كما فى الفجالة تتركز تجارة الورق والوراقين وأدوات الكتابة. وشارع الجمهورية تجاه المحطة تكثر فيه محلات التحف القديمة والأنتيكات.. الخ. وكل هذه شوارع قل أن يرتادها الجمهور اليومى العريض، وهى أكثر هدوءًا نسبيًا من شوارع مثل ٢٦ يوليو وطلعت حرب وعدلى وقصر النيل وما يجاورها ويتفرع عنها حيث لانجد إلا تجارة التجزئة الكثيفة المضطرمة بالحياة والحركة. وبينها يظهر التخصص فى خط

واحد بحسب الشوارع أو المناطق فى حالة تجارة الجملة، يغلب على تجارة التجزئة الطابع المختلط عمومًا، والذى يصل إلى مداه فى المحلات الكبرى المنوعة multiple stores مثل شيكوريل وهانو وجاتينيو.. الخ، وتلتصق وثيقًا بعين المنطقة نصًا.

من أهم الخصائص بعد هذا، الفصل الجغرافى بين محلات التجارة العصرية والقديمة التى تختلف أيضًا فى روادها، فالأولى أكثر ارتباطًا بجمهور العاصمة نفسها أولا وبطبقاته الأكثر غنى ثانيًا، بينما يكثر فى زبائن الأخيرة أبناء إقليم المدينة من الريف المجاور أو البعيد إلى جانب الطبقات القاهرية الشعبية. فالقطاع الغربى من منطقتنا تستأثر به التجارة العصرية، بينما تتراجع القديمة إلى القطاع الشرقى ابتداء من العتبة تقريبًا. فهناك تسود المحلات الشعبية والتقليدية ويتحول السوق إلى «سويقات»، وقد يخرج من المحل إلى الرصيف ومن الرصيف إلى المتجول. كذلك يكثر التخصص بالشوارع ويزداد دور الجملة، كما نرى فى محلات المصنوعات الجلدية والأحذية والصينى على نواصى العتبة، وكتجارة الذهب

والصياغة فى الموسكى والصاغة، والأقمشة الخشنة وغزل الأنوال الريفية فى شارع الأزهر، والعطارة فى الغورية.. الخ .

تلك هى تجارة القاهرة المركزية، التى يتعدى إشعاعها حدود العاصمة، ولكنها مع ذلك لا تحتكر كل نشاطها. فهناك التجارة الثانوية أو المراكز الثانوية أو تجارة الأحياء التى تظهر فى مفارق الطرق الاستراتيجية فى أغلب الأحياء كنسخ مصغرة محلية - كأنها الأقمار فى فلك شمس - من منطقة التجارة المركزية، التى تخرج منها كالأشعة فى الواقع ألسنة ممتدة على طول الشوارع الرئيسية فى المدينة تحتل المحلات التجارية جوانبها وواجهاتها، حتى إذا تجمعت فى مفارق الطرق بعيدًا عن قلب المدينة برزت من تلاحمها وتكاثفها تلك المراكز الثانوية التى تخدم الأحياء.

ومع ذلك تبقى الدرجة الثالثة من التجارة، وهى آلاف المحلات الصغيرة المبعثرة فى كل شوارع أو زوايا ونواصى الجيزة والأحياء السكنية، والتى يتحدد توزيعها

عادة بحسب كثافة السكان، مثلما يتحدد مستواها بحسب الحالة الطبقية. وعادة ما تمثل هذه مشكلة فى مناطق الهوامش والأطراف من المدينة حديثة النمو كالعجوزة الآن، فظهورها يتخلف عن ظهور السكن الجديد أو لا يظهر منها أولا إلا محلات الضروريات كالبقالة والتموين، وتظل المنطقة خامًا تعانى من نقص الخدمة التجارية حتى تزداد كثافة السكان وتتداعى سائر الخدمات التجارية الأكثر رقيًّا وترفيهًا.

* * *

من الوظيفة التجارية ننتقل منطقيًّا إلى الإدارية. كعاصمة سياسية، لها شهرة تقليدية بمركزية بيروقراطية ثقيلة، تلعب الإدارة دورًا هامًا فى حياة القاهرة. ويكفى أن أكثر من ثلث هيئة موظفى الدولة يتركز فيها. والوظيفة الإدارية تتداعى مؤسساتها بالطبع، وتميل إلى التجمع الجغرافى، كما أنها تحتاج إلى موقع مركزى دون أن يكون بالضرورة فى صميم القلب المزدحم الصاخب.

من هنا، وعلى ضلوع منطقة التجارة المركزية ناحية

الجنوب والجنوب الغربى، تمتد رقعة دولة الإدارة وتتتابع أجهزتها كأنها قشلاقات جيش الموظفين. فابتداء من ميدان التحرير، الذى يقف مجمعه الشاهق ليعلن كنصب تذكارى عن حدود تلك الدولة، وفيها بين شارع القصر العينى وخط حديد حلوان، يمتد لنحو الميل حى الوزارات والبرلمان بلا انقطاع، ككتلة بالجملة أو كحجر واحد، بل وتطفو خارجها طفوح النمو والربح المركب، حتى تصل عبر ميدان لاظوغلى إلى ميدان الجمهورية حيث كانت قاعدة الحكم طويلا.

ويلاحظ أنه يرتبط بهذه الكتلة ارتباطا صميمًا ومباشرًا، وظيفيًا وجغرافيًا، شريحة مميزة بكاملها على الجانب الآخر من شارع القصر العينى من السفارات والقنصليات ، تتمثل فى قصر الدوبارة وجاردن سيتى التى تتصل بها مبانى الخارجية والجامعة العربية المترابطة أيضًا. هنا دولة السلك السياسى الأجنبى الذى يحتاج إلى أن يتعامل مباشرة وفورًا مع دولة الموظفين المجاورة. وقديمًا، وفى العصر الاستعمارى، فلعل الكلمة الدارجة «ما بين لا ظوغلى وقصر الدوبارة» كانت تعبر عن علاقة أكثر

من عابرة. على أن هذه الشريحة إنما ترتبط بالوظيفة الإدارية السياسية ارتباطًا جزئيًا، ولكنها أساسًا منطقة سكنية وليست من القلب الإداري.

* * *

العاصمة بعد هذا هي عاصمة الصناعة المصرية أيضًا، ففيها أكبر حشد للصناعة في البلد. وإذا كانت الصناعة الحديثة طفرة جديدة نسبيًا في وظائف القاهرة، فهي منذ القدم مركز تليد للصناعة القديمة والمحلية التي تراجعت الآن كثيرًا جدًا في أهميتها لتترك الصدارة المطلقة للأولى. وهذه التفرقة هي نفسها مفتاحنا للتمييز وظيفيًا وجغرافيًا بين الصناعة الخفيفة والثقيلة، بين الصناعات البسيطة واليدوية والصغيرة والتقليدية وبين الصناعات الحديثة والمعقدة والآلية. فالصناعة الثقيلة ليس لها مكان إلا على أطراف المدينة، أما الخفيفة بكل أنواعها فتقوم في داخلها ولكن بعيدًا عن قلبها التجاري.

على أننا هنا نستعمل الثقيلة والخفيفة استعمالاً نسبيًا خاصا فيه قدر من تجاوز. فلعل من الخير ومن المقبول لأغراضنا وفي إطار المدينة المحلي الضيق ان نطلق الأولى

على الصناعات الأكثر أهمية وحجمًا أو وزنًا فى اقتصاد أو لاندسيب المدينة، والثانية على الأقل خطرًا ومقياسًا أو ثقلًا. وهذا مع العلم بأنه لا صناعة ثقيلة بالمعنى الصحيح فى القاهرة إلا صناعة الحديد والصلب فى حلوان.

فمن الخفيفة نجد خلية قديمة من الورش والمصانع الصغيرة والمعامل التقليدية فى بولاق والسبتية، ترتبط غالبًا بالحدادة والسمكرة وتصليح وتجميع الآلات والمراكب ووابورات السكة الحديدية، وتعتمد أحيانًا على الخردة التى لها سوق تقليدية فيها (وكالة البلح)، كما تعمل فى الصباغة والنسيج على نطاق صغير لعله امتداد أو بقايا لنشاط واسع عرفته المنطقة فى القرن الماضى أيام محمد على حين استمدت «المبيضة» اسمها من صناعة تبييض الأقمشة.

وعلى الجانب الآخر الشرقى من المدينة خلف الموسكى والغورية وباب الخلق حتى السيدة زينب، فى الجمالية والدرب الأحمر، منطقة أخرى واسعة تنتشر فيها ورش الحرفيين والصناعات الصغيرة المتنوعة التقليدية والحديثة التى تتراوح بين معامل الغزل المتوسطة

وصناعات الأغذية وتعليب الفواكه وفابريقات تعبئة المياه الغازية والزجاج والنجارة والمصنوعات الجلدية والحياكة والتطريز والطباعة والتجليد وسائر الصناعات الاستهلاكية. ومن هذه الوحدات ما يقوم في بنايات أنشئت خصيصًا للصناعة، أو في شقق أو بدرومات المساكن العادية، وبعضها لا يخضع للمواصفات والمقاييس الدقيقة للصناعة، وبعضها نصف آلي نصف يدوي، ومنها ما ينتج لحساب الجملة وما ينتج للزبائن الأفراد من الجمهور..

ومعنى هذا أن هذه الصناعات الخفيفة، التي لا تحتاج إلى رءوس أموال أو عمال أو خامات ضخمة أو مساحات شاسعة، ويمكن لمضايقاتها من ضوضاء ونفايات أو روائح أن تحتمل نسبيًا، هي وظيفة تختلط بالوظيفة السكنية وليست متعزلة عنها. ولكنها من الناحية الأخرى لا يمكن أن تقوم — وما قامت هنا — إلا في تضاعيف أحياء سكنية فقيرة أو شعبية، ووجودها نفسه بين ظهرانيها واحد من عوامل خفض درجتها السكنية، غير أنها في النهاية من

أهم مصادر الدخل والعمل للسكان، فمن بين صفوفهم تستمد كل قوتها العاملة.

وأخيرًا فإن تركز هذه الصناعات المتنوعة هنا بكثافة ملموسة هو فى الحقيقة استمرار لتوطن صناعى تقليدى قديم هنا. ففى هذه القطاعات العتيقة من شرق المدينة كان القلب الصناعى للقاهرة الوسيطة، بتنظيماتها ونقاباتها وأسطواتها. وصناعاتها اليوم تستمد بعضًا من مسحة وخصائص صناعات الأمس، إما متطورة أو متدهورة نوعًا، وإن كانت لا تبدى التخصص الجغرافى الذى كان يسود قديمًا حين كانت كل صناعة - على طريقة العصور الوسطى - ترتبط بشوارع أو حارات معينة لا زالت مقروءة حتى اليوم فى الأسماء وإن زالت من اللاندسكيب. من هذه الأسماء - التى لم تعد اسمًا على مسمى بالضرورة - السروجية والسيوفية وسوق السلاح حول القلعة، ثم المغربلين والكحكيين والفحامين والنحاسين... الخ.

فإذا انتقلنا الآن إلى الصناعة الثقيلة (تجاوزًا أو

نسبيًّا)، التي هي أحدث جدًّا من الناحية التاريخية، فإنما ننتقل من وسط جسم المدينة إلى أقاصي أطرافها والهوامش. فالصناعة الثقيلة وظيفة هامشية جدًّا بالضرورة، تقذف بها عوامل الطرد المركزية إلى حواف المجمع، بل على انفصال فيزيقي عنه إن أمكن، بينما لا تجد هي نفسها أي فائدة أو منطق في السعي إلى داخله.

وإذا كانت هذه الصناعات حديثة تاريخيًّا وعصرية تكنولوجيا، فثمة قبلها بعض خطوط قديمة بدائية ومحلية بالضرورة تبدي على قلة أهميتها تركزات جغرافية صارمة بل وترتبط حتى بمعطيات الموضع نفسه وتنعزل بصرامة عن جسم المدينة. ولعل المثل الكلاسيكي هو صناعة التحجير والجير والطوب. فمحاجر القاهرة وجياراتها مركزة كلها بالضرورة في الجنوب الشرقي في جبل المقطم أساسًا، حيث تتتابع عشرات وعشرات منها في نطاق واضح، ينحصر بين كنتوري ١٠٠ – ٨٠ مترا في الشرق، ٦٥ – ٣٥ مترا في الغرب، ويمتد من مشارف الجبل الأحمر

حتى نهاية الخليفة، كما يتناثر عدد منها فى تلول عين الصيرة وبطن البقرة غير بعيد عن مصر القديمة التى تعرف نشاطًا هامًا فى صناعة وتجارة الجير والجبس. وليس من الصدفة أن كثيرًا من مبانى شرق القاهرة هى من الحجر أكثر منها من الطوب؛ وعلى النقيض تمامًا من المحاجر التى ترتبط بالجبل، ترتبط القمائن وصناعة الطوب بالجزر النيلية وطميها. فجزيرة الذهب غابة من المضارب، وهى المورد الأول للعاصمة.

وما دمنا هنا فى دائرة المحاجر، فقد يمكن أن نمضى منطقيًا إلى الجنوب، إلى طرة والمعصرة، لنجد استمرارًا وظيفيًا، ولكن مع انقطاع جغرافى جزئى وتكنولوجى تام، للصناعة المرتبطة بالمحاجر. فمنذ أوائل القرن قامت هنا وحدات عصرية وعلى أضخم نطاق لصناعة الأسمنت والجير، طفرت فى العقود والسنين الأخيرة لتصبح أعظم صرح فى هذا الخط لا على مستوى الجمهورية وإنما على مستوى القارة، يغطى إنتاجه الاستهلاك القومى ويجد فائضًا هامًا للتصدير. والوحدتان اللتان تستوعبان بضعة

آلاف من الأيدى العاملة واللتان تعدان بمقياسها وطبيعة منتجاتها من أثقل الصناعات، هما فى الحقيقة مستعمرتان ضخمتان من التخصص المطلق بالضرورة الحتمية، منفصلتان جغرافيا عن جسم العاصمة تمامًا، ولكنهما تدخلان فى صميم وشقوق كل نسيج فيه.

غير أننا فى الحقيقة إذا قلنا الصناعة الثقيلة فقد قلنا شبرا فى الشمال، وحلوان فى الجنوب. هاتان قطبا الصناعة الثقيلة، وأعظم منطقتين صناعيتين منفردتين فى مصر عمومًا، وتبلغ قيمة رأس المال الذى وضع فى صرح كل منهما الآن بضعة مئات من الملايين من الجنيهات.

والقطب الشمالى أقدمهما، بدأ بمضاربات الرأسمالية والبورجوازية الأجنبية والمتمصرة والمصرية إبان الحرب الثانية للكسب الاستغلالى السريع والصريح فى صناعات الغزل والنسيج والتريكو والجوارب خاصة والقطنية أساسًا، فى مصانع متهالكة وفى خطة عشوائية وفى ظروف عمالية سيئة. ولكن النواة التى بدأت منفصلة جغرافيًا فى شبرا الخيمة نمت قبل التأميم ثم طفرت بعده حتى

توسعت زحفاً: إلى الشمال حتى تخطت حدود القليوبية وضواحي مصر، وإلى الجنوب عبر شبرا المظلات وشبرا البلد حتى شارفت حدائق شبرا والتحمت بالسكن وتداخلت فيه. كما انتقلت بعد ذلك من القطنيات إلى الصوفيات والحريريات والبلاستيك والنايلون، كما نمت لنفسها صناعات تكميلية مساعدة من المعدنيات والاطارات.. الخ، لتؤلف منطقة صناعية منوعة ومتكاملة أفقيا ورأسيا بمعنى الكلمة.

وبقوة هذا القطب الصناعي، انبثقت أخيرا نويات صناعية أحدث على طول الترعة الاسماعيلية وشارع بورسعيد، زحفت حتى مسطرد، وترتبط بصناعات تعبئة الغاز والكاوتشوك.. الخ.. ومن قبل قفزت حول ذلك القطب مستعمرات عمالية غير مخططة ومدن العشش والصفيح لا زالت دون المستوى كثيراً وتمثل خلية من التزاحم الخطير، تجمع في محيطها بضع مئات من الآلاف من العمال وأسراتهم.

هذا، وقد ظهرت لهذه المنطقة الصناعية الأم نوية

حديثة متواضعة وزنا وحجما ولكنها تناظرها عبر النهر فى شمال الضفة الغربية فى امبابة، تدور أساسا حول النسيج والصناعات القطنية والتريكو والجوارب، تخلقت حولها هى الاخرى مستعمرة عمالية - مدينة العمال بامبابة - الا انها مخططة هندسيا على نمط مستطيل. وقد تقاطرت بجوارها أخيرا محطات القوى والمياه... الخ

والآن، ومن وجهة جغرافية المدينة، فلا شك أن منطق توقيع هذه المناطق الصناعية الغلابة يدعو الى التساؤل. لسببين أساسيين:

أولهما: أنها تقوم فى صميم الأرض الزراعية الثمينة، فهى وإن نقلت بالتحول المهنى عشرات الآلاف من الفلاحين إلى عمال فقد عقمت الآلاف من أجود الأراضى، كما أصبحت نفاياتها مصدر تلوث خطير لمياه المصارف والترع.

والسبب الثانى: أن هذا الموقع الشمالى يأتى على النقيض تماماً من كل منطق التخطيط فى بلد تسوده الرياح الشمالية وتطلب لذاتها كتيار منعش شتاء ملطف

صيفا (البحرى). فهى تلقى بكل دخانها وإفرازاتها على سماء المدينة إلى الجنوب. ولعل هذا وحده أن يفسر كيف خفضت القيمة السكنية لتخومها المباشرة ولماذا سادت السكنى المتوسطة والفقيرة وأحياء العمال فى القطاع الشمالى من المدينة هنا فى شبرا وروض الفرج، والساحل فى وقت كان يمكن فيه أن يستقطب السكن الراقى باجتماع الواجهة الشمالية مع الجبهة المائية على النيل.

غير أنه ما من شك أن الذى يفسر هذا التوقيع الخاطئ سكنيًا هو الميزة الموقعية اقتصاديًا، فهنا فى الشمال تتصل العاصمة مباشرة أسهل وأسرع اتصال مع كتلة الدلتا الغنية مصدر خامها وغذائها الأول وممر التصدير والاستيراد الخارجى. لقد تغلبت مصالح الإنتاج على السكن، ومصالح صاحب رأس المال (قبل التأميم) على صاحب العقار.

وإذ ننتقل إلى حلوان - القطب الجنوبى - نجد المسرح مختلفا والقصة أحدث بكثير. فهنا ومنذ عقد

تقريباً غزت الصناعة الثقيلة ضاحية خارجية متفصلة، سكنية سياحية، ترقد هادئة حول عيونها المعدنية كمدينة من مدن المياه Spa town، لترتفع الأفران العالية إلى جانب ينابيعها المعدنية. هذه أول قلعة لصناعة الحديد والصلب، قاعدة الصناعات جميعًا، بدأت على خام أسوا والنقل النهرى وتتحول إلى خام الواحات البحرية والخط الحديدى. ففى أحضان وادى حوف زرعت غابة من المصانع والمداخن والأفران تترامى لبضعة أميال وتعمل على خط انتاج واحد كسير متحرك، لتنتج القضبان والعربات الحديدية والفلنكات والآلات المعدنية وقطع الغيار وأسياخ التسليح، عدا صناعة السيارات تصنيعًا وتجميعًا، وعدا الصناعات الحربية والأدوات المنزلية الحديثة... الخ

والعملية هنا انقلاب عمرانى كامل بقدر ما هى انقلاب اقتصادي. فأمام حلوان إلآن نمو سكانى ومد ضخم، ومن المحتمل أن تنمو حتى تتقابل أو تتقارب يو مع حدود كتلة القاهرة المبنية[٢] مثلما دخلت الآن أكثر من

أي وقت مضى في فلكها الاقتصادي، وإذا كان التوقيع الصناعي هنا سلبيًا من وجهة مناخ القاهرة، فإن مستقبل مدينة الاستشفاء والعيون يصعب التنبؤ به في قلب هذه الدوامة الصناعية الثقيلة. ولكن المحقق على أية حال أن ليس ثمة مبرر جغرافي طاغ أو واضح لذلك التوقيع أصلًا، إلا أن يكون القرب من مجمع العاصمة، الأمر الذي يعود بنا إلى قضية إفراط المتروبوليتانية عمومًا.

من وظائف الإنتاج ندلف إلى وظائف الخدمات، وأولها التعليم. وللوظيفة التعليمية في القاهرة دور خاص إن لم يكن فريدًا حقًا، إذ أن جمهورها من الطلبة يقدر بنحو المليون أي خمس السكان، ولا مفر لذلك من أن تبرز مؤسساتها بالحاح في لاندسكيب المدينة. والقاعدة الأصولية أن هذه توزيعها الجغرافي يتناسب مع درجتها التعليمية، بحيث تكاد شبكتها ترسم هيكلًا عنقوديًا أو شجريًا أو هرميًا كنظام كريستالر عن توزيع المدن نفسها في الإقليم. فمدارس الصغار - وهي أساسًا خدمات جيرة - أشدها انتثارًا وانتشارًا، وتوزيعها سكني بحت

أى يرتبط بالأحياء السكنية. أما المدارس الثانوية فخدمات أحياء أكثر منها خدمات جيرة ضيقة، وهى لذلك أقل عددًا وأكثر تباعدًا، ولكنها سكنية أيضًا بالضرورة..

وإذا كان ثمة استثناء للقاعدة فهو الاستثناء الذى يؤكدها، وهو التعليم الأجنبى. فمدارس الجاليات والارساليات الأجنبية كلها تتقاطر (أو كانت) على قلب العاصمة التجارى، فهى - كروادها - أدنى إلى المسحة التجارية وأشبه أن تكون عناصر مقتلعة، مثال ذلك المدرسة اليونانية والألمانية والفرنسية قرب الفلكى (وربما أضفنا تجاوزاً الجامعة الأمريكية غير بعيد) ومدرسة الإرسالية الأمريكية قرب حديقة الأزبكية. الخ أما التعليم العالى فهو وحده الذى يبدى تركزًا جغرافيًا حاسماً أولا، وانفصالا مطلقا عن السكن ثانيًا، وارتباطًا حتميًا بأطراف المدينة ثالثاً، وبأطرافها الحديثة الراقية العصرية رابعاً. ذلك أن الجامعة تحتاج إلى مساحات شاسعة - تتزايد أبداً - مثلما تحتاج إلى الهدوء المطلق.

وهذا يتجسم فى ترامى جامعة القاهرة فى الجيزة الحديثة على مدى ما بين كوبرى الجامعة وكوبرى الجيزة وبعمق كبير، ثم فى انتشار جامعة عين شمس من الزعفران إلى العباسية. وكل منهما - يلاحظ - على ضلوع العاصمة غرباً وشرقاً، كأنهما قطبان إلا أنهما قطبان متنافران موقعاً مع قطبى الصناعة فى الشمال والجنوب.

وتمثل جامعة الأزهر توقيعاً مختلفاً. فصحيح أنها على ضلوع المدينة بل وفى حضن الجبل من الشرق تسوّاً، ولكنها فى أقدم قطاع فى المدينة. ولكن هذا مفهوم لعراقتها التاريخية إلى جانب نوعيتها الدينية. غير أنها تدفع ثمن هذه النشأة وذلك الموقع عجزاً عن التوسع المساحى فى وسط ذلك الحى الشعبى المكتظ، الذى يضفى عليها أيضاً جوًّا وطابعاً خاصًّا. ولهذا فقد بدأت أخيراً تتوسع بمعاهدها ومدنها السكنية تجاه العباسية بعيداً فى مدينة نصر.

ومن الطريف هنا أن نلاحظ الاتجاه التاريخى فى الحركة من الجامعات الدينية القديمة إلى الجامعات

العلمانية الحديثة. فالانتقال الحضارى الذى حدث خلال القرن الأخير من التعليم الدينى التقليدى إلى التعليم المدنى العصرى يلخصه ويرمز إليه الانتقال من جامعة الأزهر إلى جامعة القاهرة، من أقصى شرق المدينة المرتفعة العتيقة الفقيرة إلى أقصى غربها السهلى المحدث الغنى. وأطرف منه أن نلاحظ مرحلة انتقال بينهما، تتوسط المدينة عبر هذا القوس جغرافيًا واجتماعيًا كما تتوسطه تعليماً، وتتمثل فى مجموعة دار العلوم ومعهد التربية العالى والمعاهد المجاورة والمماثلة فى منطقة المنيرة «وذلك قبل ضمها أخيرا إلى الجامعات الحديثة، حركة بندول كاملة نحو التغريب حضارة ونحو الغرب موقعاً!

هذا، ويختلف التعليم الفنى فى توقيعه، فهو عادة -وبأنواعه المختلفة - يرتبط بمواقع المهنة نفسها أو الأحياء المعنية. فعادة تقوم المدارس والمعاهد الصناعية قرب الأحياء الصناعية، مثلما يتبلور فى سلسلة متراصة من المدارس الفنية الصناعية وورشها فى بولاق ترسانة الصناعة التقليدية قديما (مدارس الصناعات الزخرفية

والميكانيكية سابقا، ورشة القطن.. الـخ). ويمكن فى معنى خاص ان نجد هـذه القاعـدة الى بعض مؤسسات التعليم الجـامعي الطبي بحسبـان المستشفيـات الجـامعيـة تعليـا وممـارسة معـاً. فمن أدعى الـظاهـرات لفتـاً للنـظر تلك الكوكبة العـديدة والمتـلاصقة من المستشفيـات الجامعيـة لكليـة الطب ومعـامل الأبحـاث، التى تتركـز فى شمـال الروضة وعلى طول القصر العينى من كوبـرى المنيل إلى فم الخليج، والتى تحدد قدرها فيـا يبدو منـذ بدأ القصـر العينى أيام كلوت. فهذه الدائرة الململومة لا يمكن إلا أن ترتبط فى الذهن عـلى الفور، كـما هى فى الواقـع، بأكـبر تجمع فى الجمهورية للأطبـاء وللعيادات الـطبية فى دائـرة بـاب اللوق وما حـولها، وليس يفصـل بينها إلا شـارع القصر العينى نفسه.

* * *

ثم ننتقل إلى وظيفة تعد – عكس التعليمية – مناقضة ومضـادة للسكنيـة إلى حـد كبـير، وهى الصـحيـة. فـالمستشفيات بمسـاحاتهـا الكبيرة وحـاجتها إلى الهـدوء

وبأخطار العدوى، لا مكان لها وسط كتلة السكان عموماً وإذا كان بوسط القاهرة عدد من المستشفيات المركزية، فالموقع السائد والمفضل غالباً والمحتم أحياناً هو الأطراف، وربما الأطراف المنعزلة تماماً، وقد نضيف: فى منصرف الرياح كما فى العجوزة ومستشفاها العام الكبير، وكما فى العباسية حيث مستعمرة كاملة من المستشفيات العقلية والحميات والصدرية فضلاً عن كورنتينة بيطرية ومعمل السيرم (قارن على العكس مستشفى الحميات فى شمال امبابة).

وترتبط المدافن، من زاوية معينة، بالوظيفة الصحية، فتصدق شروطها على توقيعها بصورة أشد صرامة. وجنوب شرق القاهرة فى منصرف الرياح، عالياً على التل المكشوف، بعيداً عن الطين فى الرمل الجاف، منفصلاً عن جسم المدينة، هو مدينة الأموات. والواقع أن سلسلة الجبانات، من الغفير شمالاً حتى الإمام الشافعى جنوبا، تؤلف نطاقا متصلا تقريبا ينحصر بين نطاق المحاجر والجيارات شرقاً وبين سلسلة التلول المتقدمة

غرباً «قطع المرأة، زينهم ، عين الصيرة،» التى بدورها تشكل نطاقاً متقطعاً يعزلها ويعزله عن السكن.

ومع ذلك ففى الإمام الشافعى أخذ الحى يزحف على الميت ويكاد يطارده، وتداخلت مدينة الأحياء مع مدينة الموتى بصورة قابضة للنفوس. وإذا كانت مدينة المقابر المقسمة بالشوارع الخطية التى تحمل أسماء وأرقاماً، تبدو كأنها المدينة السكنية للموتى، فالطريف أن العزل فيها على الأساس الدينى والجنسى أكثر صرامة بكل تأكيد عنه فى مدينة الأحياء، فلكل طائفة جباناتها الخاصة المطلقة.

تبقى أخيراً بعض وظائف تتشابه مع الصحية فى طبيعتها الهامشية، إلا أنها لا تبدو كذلك ذاتياً فى القاهرة. فالمؤسسات الترفيهية - الرياضية منها - كالملاعب والأندية الكبرى هى بطبيعتها مسرفة فى حاجاتها من المساحة وتختنق بغير الهواء الطلق والأماكن المكشوفة. ولأن جمهورها - فى ظل المستوى الحضارى والاجتماعى الراهن - ما زال محصوراً غالباً فى الطبقات القادرة،

فهى تجنح عادة إلى أن تقع فى القطاعات الراقية من الأطراف. اعتبر مثلاً نادى الصيد خلف الدقى، والزمالك والترسانة فى مداخل العجوزة، واستاد القاهرة فى مدينة نصر، ثم نادى سباق الخيل والبولو فى مصر الجديدة.. الخ

ولقد نظن أن هذا يصدق أيضاً على ناديى الجزيرة والاهلى اللذين يحتلان نصف الجزيرة الجنوبى ويمثلان معاً أكبر رقعة رياضية متصلة فى العاصمة. ولكن الحقيقة أن هذا الموقع أقرب شىء إلى قلب المدينة، وموقعه هنا إنما يمثل حالة شاذة من عدم التلاؤم ومن الجمود anachronism من وجهة ديناميات نمو المدن. وهذا نقد قد يثير حساسيات عاطفية عند الكثيرين، ولكنه يفهم على ضوء الماضى. فقد أنشأ الاستعمار البريطانى هذه الحلبة لتكون حكرًا أرستقراطيًا له أولاً، وحين أنشأها فى العقود الأولى من القرن لم تكن الضفة الغربية تتعدى بالكاد بندر الجيزة، وكان هذا الموقع هو بالفعل أطراف مدينة القاهرة الهامشية. ولكن نمو القاهرة عامة والضفة الغربية

خاصة سرعان ما غمره فى مده واحتواه حتى أصبح الآن قريباً جدًّا من قلب المدينة. وهناك أدلة متزايدة على أنه قد بدأ بالفعل يعرقل النمو الطبيعى لهذا القلب، كما أن تدفق رواده عامل اضطراب موسمي خطير فى مواصلات العاصمة. والأسوأ من هذا أنه يعقم الاستغلال الأمثل لرقعة هائلة ذات قيمة عقارية لا تقدر فى موقع ممتاز من المدينة المتفجرة بالنمو. فكل أصابع التخطيط الرشيد تشير إليه أما كمنطقة سكن راق أو كسكن تجارى عالمى (فنادق سياحية الخ) أو كخلية ومجمع للقاعات الدولية وصالات المؤتمرات والمعارض العالمية الخ. والمنطق التخطيطى يقضى بأن يهاجر إلى الهوامش الجديدة، مثلا كمنطقة نادى الصيد. أما القول بأن هذا يحرم القاهرة من «رئة» طبيعية أو يضاعف مشكلة كثافة السكان، فليس ردًّا، لأن النيل بشعبتيه هنا هو الرئة الطبيعية الكاملة، والحاجة إلى رئة إنما تزداد كلما بعدنا عن النهر خاصة فى أعماق الضفة الشرقية المكتظة. ثم أن الزمالك والروضة مناطق مبنية ولم تخنق أحدًا. وفوق هذا كله، فما نعرف عاصمة كبرى فى العالم تتوسطها جزر نهرية

دون أن تستغلها أكثف وأمثل استغلال عمراني: مثلا السيتي في باريس، ما نهاتن في نيويورك.

* * *

مثل هذا أو شيء منه يمكن أن يقال عن الوظيفة الحربية ومؤسساتها في القاهرة. فمنذ العصور الوسطى وطوال تاريخ القلعة مثلا، وللدفاع مدينته الكاملة المطلقة (بثكناتها ومخازنها بل ومصانع سلاحها) التي تقع كلية خارج المدينة وعلى ضلوعها الشرقية، مصدر الخطر الخارجي الأساسي. (على العكس من هذا تمامًا في ظل الاستعمار، كانت هذه المدينة العسكرية في صميم قلب المدينة، قصر النيل، استجابة لا لأغراض الدفاع الخارجي ولكن لأغراض الاحتلال الداخلي) وانتقال موقع وظيفة الدفاع من جنوب شرق القاهرة (القلعة) إلى شمالها الشرقي (العباسية – القبة) يرمز إلى تطور الفن العسكري.

ولا شك أن الموقع الأخير، الحالي، هو عنق زجاجة القاهرة ومدخلها الاستراتيجي الأخطر. غير أن القصة

هنا تكرر مشكلة تراجع المواقع الهامشية مع نمو المدينة، فقد احتوى المد العمرانى المدينة العسكرية - على تسرامى رقعتها - إلى أن فقدت هامشيتها الشرطية بتجاوز العمران السكنى والمدنى لها شرقا نحو الصحراء. وإذا كان هذا عنصر تعويق فى نمو المدينة، فهو أشد تعويقا للوظيفة الحربية نفسها. ولقد نضجت المشكلة - التى واجهتها عواصم أخرى كثيرة - بما يسمح بإعادة توقيعها وتقلها إلى الأطراف الجديدة.

الطبوغرافيا الاجتماعية

لا تنفصم الوظيفة السكنية عن فكرة الطبوغرافيا الاجتماعية، إن لم ترادفها تقريبًا. والطبوغرافيا الاجتماعية - والمصطلح للمخطط المهندس الفرنسى جاستون بارديه - هى أساسًا التوزيع الجغرافى للطبقات الاجتماعية على أرضية المدينة. وإذا كانت المدينة الاشتراكية كالسوفيتية لا تعرف إلا التباين الجغرافى على أساس الإنتاج، بينما تتجانس فيها الأحياء السكنية

تمامًا، فإن طبوغرافيتنا الاجتماعية ليست بعد اشتراكية وإن كانت لمدينة عاصمة فى دولة تتحول إلى الاشتراكية. فنحن هنا إزاء المحصلة التراكمية لتاريخ طويل من الإقطاع والرأسمالية، ولا مفر لنا لوقت طويل من أن نميز بين الأحياء السكنية على الأساس الطبقى اقتصاديًا واجتماعيًا. بل إن المسكن مازال هو التعبير المادى الأخير عن الطبقة والمنزل هو المنزلة، والمكان هو المكانة.

غير أن الطبوغرافيا الاجتماعية ليست الطبقة وحدها، بل والجنسية والطائفة أيضًا، أى الأقليات عمومًا، وهذه لها مكانها فى عاصمة كوزموبوليتانية كالقاهرة، وسنجد لها جزرها وأسافينها الجغرافية الخاصة. على أن من الواضح تمامًا أن وزن الجنسية والطائفة ثانوى وضئيل للغاية بالقياس إلى الطبقة، فهذه وحدها هى أهم المتغيرات وأبرز المعالم فى الطبوغرافيا الاجتماعية لعاصمة قديمة عريقة لشعب موحد متجانس منذ آلاف السنين. وهذا على العكس تمامًا من مدينة كالمدينة الأمريكية تمتاز أساسًا، كمدينة بلا تاريخ

وكمدينة هجرة، بالتنافر الاثنولوجي وتعدد الأجناس والقوميات، ويأخذ فيها الجنس بعدًا لا يقل خطرًا عن الطبقة في تشكيل مورفولوجيتها الاجتماعية.

مع هامش عريض من التبسيط والتعميم، يمكن أن نحصر الأحياء السكنية الفقيرة في أقصى جنوب المدينة وأقصى شرقها ثم أقصى شمالها، مع جزيرة كبيرة في وسطها. أقصى الجنوب: في أجزاء من الجيزة البندر، وأجزاء من مصر القديمة حتى السيدة زينب، مرورًا بأبو السعود والمدابغ والمذبح والبغالة. أقصى الشرق: من الخليفة حتى الحسينية، مرورًا بالقلعة والدرب الأحمر والجمالية. أقصى الشمال: في أطراف شبرا الخيمة وشبرا البلد والساحل وما حولها وامتداداتها عبر مسطرد ومهمشة والشماشرجي، ثم إزاءها في امبابة. أما جزيرة الوسط فكتلة بولاق والسبتية. وثمة أحيانًا جيوب ثانوية على أطراف المنطقة المبنية في الضفة الغربية من القرى المبتلعة كبولاق الدكرور أو مدن العمال مثل بين السرايات.

هـذه بوضـوح هى إما أحيـاء شعبية قـديمة التـاريخ، والمبانى عتيقة الـطرز، بعضها متهـالك أو آيـل للسقوط، شوارعها بلا تخطيط أو عشوائية الخطة، ترتفع فيها كثافة المساكن بفضل أزقتها وحواريها الضيقة، كـما ترتفـع فيها كثـافة السكـان وحجم الأسرة. أو هى أحيـاء عمـاليـة حـديثة التـاريخ ولكنهـا منخفضة المستـوى وقد تـرتبط ببعض البـورجوازيـة الصغيـرة من صغـار المـوظفـين أو الحـرفيين. وأوضـح من ذلك كله أن السكن يختلط فيهـا بـدرجة أو بـأخرى بـالصناعـة والتجارة كـما رأينا. وهى أخيـرًا وفى أغلبها، ولكن ليس دائـمًا تقوم عـلى الأرض المرتفعة ذات الكنتورات العالية.

وعلى طرف النقيض، تتوزع الأحياء السكنية الغنية، بدرجاتها المتفاوتة، فى معظم النطاق الأقرب إلى النهر من الضفة الغربية شمال الجيـزة البندر، ثم فى الجـزء الأكبر من جزيرة الروضة، ثم فى الجزيرة (الزمالك) ثم نعبر إلى جاردن سيتى وقصر الدوبارة، لنقفز بعدها بعيدًا إلى مصر الجديدة وأجـزاء كثيرة من الشمـال الشرقى إبتـداء من القبـة. وأبرز مـا يجمع بـين هذه الأحيـاء جغـرافيًـا أنها

باستثناء مصر الجديدة وما حولها تقع فى الأراضى المنخفضة على جبهة النيل.

وفى الأعم الأغلب تقتصر هذه الأحياء على السكن، فإن غزتها وظائف أخرى فبعض المؤسسات الإدارية كالوزارات أو المصالح، ولكن بوجه أخص البعثات الدبلوماسية، فهذه تتقاطر على أحياء السكن الراقى، فنجد أغلب السفارات والمفوضيات والقنصليات تعشش فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة فالزمالك فالدقى وحديثا وأخيرًا العجوزة. على أن السفارات والهيئات الدبلوماسية إذا عدت دليلاً على السكن الراقى، فهذا يقتصر على الأحياء السكنية القريبة من قلب البلد نسبيًا، أما المتطوحة منها فتخلو منها، كمصر الجديدة.

أما اللاندسكيب المدنى السائد هنا فهو العمارات العالية وأحيانا الناطحات الصغيرة، ودائمًا فى عمارة عصرية حديثة. أما الفيللات فقليلة لشدة ارتفاع قيمة أراضى البناء على الأرض السوداء حيث لابد من الحد الأقصى من الاستغلال بالكثافة الرأسية. وهنا نستطيع

أن نـرى كيف أن «جاردن سيتى» مثـلا اسم عـلى غـير مسمى، بل وسخرية من فكرة «الجاردن سيتى» المعروفـة فى أوربا منذ هـوارد، فهى غابـة من العمارات الضخمة أكثر منها كوكبة من الفيللات فى بحر من الحدائق. ولكن الفيللا تعود فتسود على الرمل فى مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى حيث تملك ترف الانسياح الأفقى.

أمـا السكـان، فهـذه هى المحـل المختـار للطبقـات الموجهة والمسيطرة والأكثر دخـولاً وترفيهًـا وترفًـا. وقد حدثت هنا منذ الثورة عمليـة «تتابـع سكنى» تغير فيهـا نـوع السكـان. فقـد كـانت هـذه هى المـواطن المفضلة لسكنى الأقليات الأوربية الاستعمارية، مثلما كـانت المقر الطبيعى للأسر الإقطاعية والرأسمـالية والصنـاعيين من الوطنيين. ومع تصفية هذا وذاك، حلت بالتدريج صفـوف من الطبقة الوسطى العليا والمثقفة الوطنية، ممـا بدأ يخفف نـوعًا من حـدة تضاريس الطبوغـرافيا الاجتمـاعية فى العاصمة.

فيـما بين النقيضـين، الأحياء الرقيقة الحـال والغنية،

تنتشر أو تنحشر الأحياء المتوسطة التى يتفق أنها متوسطة فى الموقع الجغرافى مثلما هى فى الموقع الاجتماعى والتى تتألف غالبًا من الطبقات الوسطى المعتدلة أو العادية من الموظفين والمثقفين أو التجار. فعدا الجانب الخلفى من الضفة الغربية، تغلب فى فم الخليج وتسود فى المنيرة وكل ما حولها وخلفها حتى حدود الأحياء المتواضعة فى شرق المدينة، ثم تغلب على كل النطاق العرضى الممتد من الفجالة والظاهر وغمرة عبر السكاكينى حتى الوايلى والعباسية.ثم فى قطاعات كبيرة من ضواحى الشمال الشرقى. هذا عدا القطاع الأكبر والجنوبى من شبرا وروض الفرج. ومن الملاحظ أن خطوط السكك الحديدية داخل المدينة، قومية كانت أو ضواحى، تخترق عادة هذه المناطق السكنية المتوسطة (أو الفقيرة) حيث تخلق على طولها مناطق موبوءة وتخفض قيمتها الاجتماعية.

ماذا تعنى هذه الخريطة الاجتماعية، وهل من مغزى للعلاقات التوزيعية بين الطبقات الثلاث؟.

لعل أبرز ما يلاحظ هو أن مبدأ الفصل السكنى سائد بعامة، بمعنى أن لكل طبقة منطقة، ولكل منطقة طبقة. وأهم من ذلك أن الفصل السكنى سلمى، بمعنى أن الطبقات تتدرج من منطقة إلى أخرى كما تتدرج فى السلم الاجتماعى. وبتفسير أوضح فإن منطقتى الطبقة الغنية ورقيقة الحال يندر أن تتجاورا متلاصقين، بل الأغلب أن تندفع بينهما منطقة طبقة وسطى تفصل بينهما، كما فى منتصف المدينة على محور جاردن سيتى - المنيرة - القلعة.

وقد تتقارب أو تتواجه هاتان الطبقتان مباشرة، بل إن هذا أحيانا مطلوب لأن القوة الضخمة العاملة فى الخدمة الشخصية والمنزلية فى إحداهما تستمد من الأخرى، ولكن لابد حينئذ من حاجز طبيعى فاصل، كالنيل بين الزمالك وبولاق حيث يتجسم التباين والتناقض الاجتماعى ويصل إلى قمته، وحيث تصل المسافة الاجتماعية إلى أقصاها والمسافة الجغرافية إلى أدناها، أو كما بين الروضة ومصر القديمة على مستوى أكثر اعتدالاً..

أما عن الضوابط الحاكمة والكامنة خلف هذه الصورة، فيمكن أن نتساءل أولا عن عامل القرب أو البعد من قلب المدينة ففى كثير من المدن الأوربية والأمريكية أصبحت مسافة بعد السكن عن القلب مقياسًا طرديًا للمستوى الاجتماعى والانتماء الطبقى، كلما زادت ارتفع، والعكس. ولكن القاهرة لا تحقق هذه القاعدة إلا جزئيًا (مصر الجديدة، المعادى، وكل ضاحية منفصلة أو شبه منفصلة) وتعارضها أكثر (جاردن سيتى، والزمالك من ناحية، وامبابة وشبرا الخيمة ومصر القديمة من ناحية أخرى).

فإذا بحثنا عن احتمال آخر، كالأرض العالية والمنخفضة فى المدن الغربية الباردة، حيث الأرض المنخفضة مصايد للضباب والرطوبة، والأرض العالية صحية جافة ومشرقة، وحيث - بالتالى - «العالى اجتماعيًا هو العالى جغرافيًا، والواطئ اجتماعيًا هو الواطئ جغرافيًا» وجدنا أنفسنا فى القاهرة إزاء قلب رئيسى وإن يكن غير كامل للقاعدة فشرق المدينة

الأعلى تضاريسيًّا يحمل الأحياء الرقيقة الحال والعمالية والشعبية، بينما غرب المدينة المنخفض على النيل وفى جزره وعلى ضفته الغربية يحتشد السكن الغنى. ولكن يعود فيشذ قطاع كبير فى بولاق والشمال (شبرا الخيمة وما حولها وامبابة) فهذه كلها أراض منخفضة وأحياء متواضعة.

هل هو إذن ضبط الرياح السائدة؟ فقد لوحظ فى الغرب أن السكن الراقى يسعى إلى أن يحتكر غرب المدينة حيث مستقبل الرياح الغربية السائدة، طازجة غير ملوثة. وفى مصر الحارة، فليس ثمة شك أن الرياح البحرية السائدة مرغوبة جدًّا وأن لها ثمنًا يدفع فى قيم الأرض أو الإيجار، وإن المدينة الاقليمية المصرية المتوسطة تنجذب أحياؤها السكنية الراقية إلى الشمال كما تنجذب البوصلة المغنطيسية. ولكننا فى القاهرة نصطدم بشبرا الصناعية وامبابة وأحيائها المتواضعة فى أقصى الشمال، وإن كانت مصر الجديدة وضواحى الشمال الشرقى مكشوفة للرياح «البحرى» منطلقة بلا عائق.

لا يبقى إلا أن تكون جاذبية النهر، فللجبهة المائية المنعشة فى مناخ حار، فضلا عن المنظر الطبيعى فى اللاندسكيب مغنطيسية لا مفر منها على السكن الراقى، ومن الواضح أن هذا يمثل جزءًا كبيرًا من الحقيقة فى القاهرة: اعتبر معظم الضفة الغربية ثم الجزيرتين، فجاردن سيتى، ومع ذلك فليس هو كل الحقيقة، حيث تقع بولاق وامبابة على النهر بينما تقع مصر الجديدة أبعد ما تكون عنه. على أن هذا لا يقلل من أهمية عامل الجبهة المائية، فحتى داخل منطقة الطبقة الواحدة، راقية كانت أو متوسطة، يطل على النهر عادة أفضل المساكن وتقل درجتها كلما بعدنا عنه.. وفى الضفة الشرقية مثلا ينخفض مستوى السكن كلما بعدنا عن النيل فى انحدار مستمر من الراقى إلى المتوسط إلى الفقير، ولا نقول إلى سكن الموتى فى أقصى الشرق!

والخلاصة الصافية؟ لا شك أن كل هذه العوامل تعمل مجتمعة ولكنها متعارضة جزئيًا، وليس فيها مفتاح أحادى. والسبب أن القاهرة مدينة معقدة مركبة بحكم تاريخها الطويل وتنوع أرضيتها كموضع ما بين الجبل

والنهر وما بين الصحراء والوادي، ولكن من الممكن أن نقول إن ضابط الجبهة المائية فيها أقوى بعامة من عامل الرياح البحرية، وهذا بدوره أقوى من عامل التضاريس.

ذلك إذن وجه المجتمع القاهرى فى بيته الجغرافى أو بيئته الطبيعية. غير أنه إن حددت الطبقة ملامحه الأساسية، فإن الأقليات تكملها بلمسات نهائية ترصع صفحته دون أن تخرج عن الفرشة القاعدية. ولقد حدثت تغييرات هامة فى العقد الأخير فى حجم وتوزيع الأقليات الأجنبية والجاليات الأوربية نتيجة «للخروج الأبيض» مع التحرير، ولكنها ظلت طويلا قبلها ذات وزن كبير حيث بلغت عدة عشرات من الآلاف، وإن قد كانت دائمًا أقل منها فى الأسكندرية بالذات.

ففى مرحلة الأوج فى الثلاثينات والأربعينات، كانت أبرز حقيقة عن توزيع الأوربيين فى القاهرة تجمعهم فى النصف الشمالى منها، أو بالأحرى غيابهم تمامًا من النصف الجنوبى. وفى النصف الشمالى كان توزيعهم

أقرب إلى قلب المدينة، وكان مركز الثقل فى جاردن سيتى وقصر الدوبارة وفى الاسماعيلية والتوفيقية، حيث كانت نسبتهم تزيد عن نصف السكان فى كثير من الشياخات. وحول هاتين النواتين، وعدا الزمالك، كانت تجمعاتهم تستمر متصلة ابتداء من الفرنساوى حتى باب اللوق ومن غمرة حتى شبرا، وفى كثير من شياخات هذه الحلقة كانت نسبتهم تتراوح بين نصف وخمس السكان.

وأهم معانى هذا التوزيع هى:

أولاً: ميل طبيعى للأقليات والجاليات الأجنبية إلى التجمع وعدم الانتشار تماماً بين الوطنيين.

ثانياً: انجذاب (غير مألوف عند الوطنيين ولكنه منطقى للأجانب) نحو قلب المدينة التجارى حيث يربطون بين العمل والسكن أو حيث يظهر السكن التجارى (الفنادق والبنسيونات الخ).

ثالثاً: يتبع توزيع الأقليات الأجنبية الإطار الطبقى العام. فكانت العناصر الأكثر غنى ونفوذاً منهم ترتبط بالأحياء السكنية الراقية كجاردن سيتى والزمالك،

والعناصر الأقل مكانة بالأحياء البورجوازية المتوسطة، ولكنها فى جميع الحالات كانت بعيدة تمامًا عن الأحياء الوطنية الفقيرة.

رابعًا: ارتبطت بعض الجاليات ببعض المناطق تقليديًا أو بصفة خاصة: الانجليز بجاردن سيتى والزمالك عدا المعادى المنفصلة، واليونانيون والطليان واللفانتيون بداخل شبرا تجاه المحطة (الشوام فى قصورة الشوام خاصة).

خامسًا: وأخيرًا، فرغم بعض ملامح الانعزال النسبى عن الوطنيين، فلا مجال قط للحديث عن عزل سكنى صارم بالمعنى المعروف فى العواصم الاستعمارية فى أفريقيا أو آسيا. بل إن بعضًا من العناصر الأقل ثراء من الأوربيين اندمج تمامًا فى كتلة السكن الوطنى، ومن الناحية الأخرى لم تظهر قط مدينة أوربية مقفلة بالمعنى الاستعمارى وحتى الانجليز رغم السيطرة الاستعمارية وتقاليد العنجهية الأنجلوسكسونية تحايلوا على العزل السكنى المقنع من خلال الانفصال الجغرافى الطبيعى حين

نموا لأنفسهم ضاحية المعادى ولكنهم فشلوا، وغزتها العناصر الوطنية. وهذا كله يذهب ليؤكد أن الفارق الحضارى والجنسي بين الأوربيين والمصريين كان دائماً على غير ما عرف الاستعمار فى كثير من بلاد العالم الثالث، وإنه عجز عن أن يخلق فى مصر أى شبهة من «حاجز لونى».

أما من الناحية الدينية، فقد كانت هذه الجاليات الأوربية ذات التركزات غير العادية فى قلب المدينة أو قربه تتخذ مؤسساتها الدينية فى ذلك القلب التجارى أو قريبًا منه، وذلك بصورة شاذة غير مألوفة، وليس فى الأحياء السكنية كما هى القاعدة فى مؤسسات الديانات الوطنية. وحتى بعد تصفية هذه الأقليات والجاليات، فمازالت مؤسساتهم تحتشد فى ذلك الوسط التجارى: مثلا كاتدرائية الإنجليز بماسبيرو، كاتدرائية سان جوزيف بعماد الدين، عديد من الكنائس فى باب اللوق والفلكى وكنيس الإسرائيليين فى شارع عدلى.. الخ.

هيكل العاصمة
أقاليم القاهرة الكبرى

من المسلم به أن القاهـرة، بتاريخهـا الألفى العريق، مدينة ناضجة مورفولجيًا من وجهة جغـرافية المدن، بمعنى أنها مرت بمراحـل وأدوار عديـدة من التجربـة والخطأ، وإعـادة التجربة والتصحيـح، حتى استقـرت واستـوت خطتها وبنيتهـا العامـة على أنسب تنضيـد وترتيب ممكن لبيتها من الداخل.

ومن هـذه الزاويـة، فالمفـروض أن تكشف القـاهـرة لدارسها بسهـولة عن هيكلهـا الاساسى وعن الخطوط العريضة فى مورفولوجيتها. غـير أن الواقـع أن القاهـرة مـدينة معقـدة نوعًـا من حيث الموضـع الجغـرافى الـذى يحتويها. فاختناقها بتلال المقطم فى الشرق منـع بصرامـة توسعها فى هذا الجانب وفرض على نموها اتجاهًا احاديًا أو قـل نصفيًا نحـو الشمال والغـرب أو الشمـال الغـربى،

وبذلك حد من حريتها فى الانطلاق نحو النمط الدائرى وحصرها فى نمط مروحى بالتقريب.

ونقول النمط الدائرى لأنه باستثناءات ليست قليلة الأهمية ومع تحفظات معينة فإن المدينة أى مدينة حين تترك لنفسها فى بيئة جغرافية سهلية تخلو من العقبات الطبيعية فإنها فى الأعم الأغلب تميل بالنظرية إلى أن تنمو حول قلبها، كجذوع الأشجار، على شكل حلقات متتابعة نحو الأطراف، وتكتسب محيطاً دائرياً أو شبه ذلك. والسؤال هو: ما النمط، ما المنطق البنائى القائد أو الحاكم الذى يمكن أن نستشفه من خلال وجه القاهرة بملامحه وعناصره ووظائفه ودينامياته التى طالعنا وحللنا؟

واضح أن سلسلة المقطم كانت بمثابة خط القاعدة الذى ارتكزت عليه القاهرة فى نموها، وبينما لم يعد اجتيازها للنيل عقبة على الإطلاق، على الأقل منذ القرن الماضى، فقد ظل محور المقطم منذ البداية إلى اليوم عقبة طبيعية صارمة. ومن الناحية التاريخية، وعبر العصور الوسطى، فإن أحضان المقطم المباشرة التى نشأت فيها

هى بطبيعة الحال «النواة النووية» للمدينة مثلما كانت قلبها المركزى فى مراحل طويلة من حياتها

وقد كان نمط توزيع الوظائف والمبانى والسكان فى مدن العصور الوسطى، خاصة الإسلامية منها، بسيطاً فى جوهره يتركز - كما يلح علينا ديكنسون - حول السلطان: فكان مقر الحاكم عادة هو قلبها يحيط به قصور الأمراء والكبراء ثم التجار ثم العامة وصغار الناس حتى إذا وصلنا إلى هوامش المدينة ساد الزراع العاملون فى حقول المدينة وأرباضها.

وشىء من هذا توحى به القاهرة العربية الإسلامية. فدائمًا منذ الفتح العربى وقبل أن تبنى القلعة فى الأيوبية ولكن بعدها بصورة أقطع، كان مقر الحكم لصيقاً أو يكاد بسفوح المقطم فى الشرق، ومن حوله كانت تترى أحياء الأعوان والمقربين وأهل الحكم ثم كبار التجار والحرفيين ثم العامة، بينما كانت بطائح وشطوط النيل التى ترصعها المستنقعات والبرك ويهددها خطر الاستبحار من فترة إلى أخرى منطقة الزراعات وتموين المدينة، وأحياناً ملاعب ومتنزهات.. الخ

وقد يمكن أن نعبر عن هذا فنيًا بأن نقول إن نمط القاهرة العربية المورفولوجى كان حلقيًا، وإنما بالتقريب على شكل نصف دائرة قطرها خط المقطم. وربما أضفنا أن الهيكل العريض لهذه المورفولوجية يذكر - مع كل الفروق الموضوعية والتاريخية بالطبع - بهيكل مدينة شيكاغو المشهور فى دراسات المدن، حيث يتركز القلب على جبهة بحيرية قاطعة وحيث يأخذ توزيع أقاليم المدينة الحلقية من الداخل نظامًا نصفيًا وليس دائريًا كاملًا.

ولكن قاهرة اليوم أشد ما تكون تعقيدًا بالمقارنة. فمنذ القرن الماضى أخذت المدينة تهجر ظلال المقطم وتزحف نحو النيل، وأخذ كثير من أجهزتها ومؤسساتها ووظائفها الحيوية تصرف بالتدريج من قلبها القديم فى شرق المدينة وتهاجر بانتظام متدفقة نحو الغرب. ولقد بدأت هذه الأعراض مع محمد على ولكنها تسارعت بعده منذ إسماعيل خاصة، ولم تكف منذئذ حتى الآن. مقر الحكم، مثلًا، كان القلعة أيام محمد على، ولكنه هو نفسه

بدأ بشتل وزرع أجهزة إدارة جديدة وعديدة فى منطقة الأزبكية، إلى أن نقل إسماعيل الحكم فيها نهائيًا إلى عابدين. هذا مجرد مثال دال، ولكن كل تاريخ القاهرة الحديثة إنما هو عمليتان إيكولوجيتان رئيسيتان: من الخارج نمو وتوسع نحو الشمال والغرب، وإعادة توزيع وترتيب لأجهزتها وانسجتها وأعضائها ووظائفها واستعمالات الأرض فيها من الداخل.

ولا شك أن أبرز المظاهر المؤثرة والملموسة لديناميكا القاهرة، كما تنبثق من تفاعل هاتين العمليتين، هى هجرة القلب التجارى المركزى، وهى نتيجة حتمية. فقلب أى مدينة هو فى الحقيقة «عاصمتها»، هو فى المدينة كالعاصمة فى الدولة تمامًا. وكما أن هناك علاقة إيقاع غير منظورة ولكنها محققة بين حدود الدولة السياسية وبين العاصمة السياسية، ينبضان، معًا ويتأرجحان معًا، فكذلك قلب المدينة: يرتبط وثيقًا ويتذبذب حثيثًا مع حدود المنطقة المبنية، كلما اتسعت حدود هذه، كلما تحتم على القلب أن يتحرك معها ليؤمن مركزيته ويحتفظ بتوسطه. هكذا

القاهرة: كما نمت حدودها نحو الشمال والغرب أساساً، نحو الشمال والغرب بالدقة تحرك قلبها.

ومن السهل ربما أن نتتبع حركة القلب التاريخية هذه من الأزهر والموسكى فى مطالع القرن، إلى العتبة والأزبكية بعد ذلك، إلى الإسماعيلية خلال فترة الحرب الثانية وما قبلها. وبمزيد من التحديد فقد كان كليرجيه فى الثلاثينات يعد عين قلب القاهرة التجارى النابض حول شارع عماد الدين. ومنذ ما بعد الحرب وصلت الحركة إلى نقطة التقاء شارع ٢٦ يوليو وطلعت حرب (فؤاد وسليمان سابقاً)، ومن بعدها انحدر الزحف على طول شارع طلعت حرب وقصر النيل وتجاه ميدان التحرير حتى شارفه، وحتى أصبح هذا من مراكز قلب القاهرة وقطب الجاذبية فيها، حيث أخذت المؤسسات والأجهزة والهيئات المختلفة من تجارية ومراكز خدمات وإدارات وشركات وفنادق كبرى تتقاطر حوله، وأخذ هو يكتسب صبغة أكثر وأكثر تجارية وحركية.

وكمقياس اختبار أو كرموز لهذه الحركة، اعتبرت

هجرة فندق شبرد من الأزبكية، والجامعة العربية من الداخل، إلى النيل، ثم قيام الهيلتون، ولا تنس قيام المجمع قبل الجميع. كذلك لاحظ زحف وانتقال منطقة الاضواء Bright Light Area (المسارح ودور السينما واللهو وشرنقة المقاهى والمطاعم الكثيفة التى تغلفها.. الخ) من شارع عماد الدين فى الثلاثينات إلى شارع طلعت حرب الان..

لقد تمت دورة بندول كاملة فى حياة المدينة وقلبها، انتقل فيها من سند الجبل إلى شاطئ النهر، ومن ضلوع المقطم إلى ضفاف النيل، وتلك نتيجة منطقية بالنسبة إلى قلب تحولت مدينته من مدينة اكروبوليس إلى مدينة فيضية، ومن موضع منحدر تلى الى موضع يمتطى نهرا ويضع قدمًا فى ضفة وقدما فى الاخرى حتى أصبح هذا هو محور المدينة الجديد.

ولا شك أن هذا الزحف الهادف إنما يتم فى جزء كبير منه تحت مغنطيسية وجذب النمو العمرانى الضخم، والمتفجر أخيرًا، على الضفة الغربية بالذات وحيث ينتظر

المزيد من النمو والانسياح. وهو أيضًا يحقق النظرية الأصولية من ان القلب يزحف نحو الاحياء السكنية الراقية. كذلك فانه يدل على أن القلب برقعته المزدحمة الحالية بدأ يكتظ ويضيق بمؤسساته وأجهزته الكثيفة والمكدسة، وبمثل ما أن بعض هذه المؤسسات بدأت هي الأخرى تضج وتضيق بضغطه وتسعى إلى أطرافه الأكثر هدوءًا واتساعًا لأغراضها. خذ مثلا دور الصحافة الكبرى في القاهرة: تجد منذ مدة هذا الاتجاه الى الابتعاد عن عين القلب إلى هوامشه، ابتداء من قيام دار أخبار اليوم في شارع الصحافة، إلى انتقال الأهرام أخيرًا جدًا إلى شارع الجلاء. ومن قبل يلاحظ الموقع الهامشي من القلب في بقية دور الصحف: الجمهورية تجاه الأزبكية، الشعب في القصر العيني، الهلال في المبتديان.. الخ. كذلك مرافق الادارة المركزية، لم يعد القلب الإداري يتسع للمزيد منها وبدأ يلفظ نموه بعيدًا، وأحيانًا خارج القلب تمامًا، كوزارة الزراعة بالدقي من قبل ووزارة الإصلاح الزراعي من بعد، وكعدد آخر من الوزارات والمصالح والمؤسسات الحكومية.

هذا، واذا كان لنا أن نحُدس المستقبل من مؤشرات الحاضر، فان ضغط القلب من أجل المكان سيفرض نفسه قريبًا حين يصطدم بالنيل ومن ورائه خاصة ملاعب الجزيرة التى هى حقيقة استغلال سيئ ومسرف لموقع محورى والتى قد تحبط حركته وتعوق نموه الطبيعى، ولكنه صراع وظيفى لا يمكن أن تكون الغلبة فيه إلا للقلب فى النهاية. وقد لا يكون قيام فندق عالمى تجارى ضخم - شيراتون أو سفنكس(٢) - على رأس الدقى السكنى فى قفزة ضفدعية ضخمة وشاذة، بلا مغزى ودلالة على هذا الاحباط الذى تفرضه تلك الملاعب مؤقتًا.

كذلك فإن كتلة بولاق الضخمة والفقيرة المتاخمة، التى تبدو اليوم ناضجة تمامًا لجراحة كبرى فى إزالة العشش، هى بالقوة الاحتياطى والرصيد الطبيعى لتوسع القلب فى بعض جوانبه فى المستقبل. وهى قد بدأت بالفعل تتلقى أو تستشعر وقع بعض فروعه وامتداداته على طول كورنيش النيل فى ماسبيرو (مبنى الإذاعة والتليفزيون مثلا.. الخ)

هــذا عن حـركــة القلب غـربـًـا، والمهم والسؤال الآن :ما الذى حدث للمنطقة التى هاجـر وانحسر عنهـا القلب بـالتدريـج؟ انها ببساطـة - ولكن ببسالـة، إذ أن المقاومة تستمر عقودا - تفقد بالتدريج أجهـزة وعناصر التجـارة والنشـاط التجـارى التى هى مقـومـات القلب وصفته الاساسية. فالقلة من محـلاتها ومؤسسـاتها الاكـثر طموحا والاقـدر على التكيف الحـديث تغادره الى القلب الجديد كلية او قد تتخـذ لنفسها فيـه فروعـا عصريـة، والكثرة تذوى وتذبل بالتدريج ويتضاءل روادهـا ودخلها وربما ظلت تقاوم اعتمادا على ولاء جمهـور واسع الـدائرة ولكنه بسيط الحاجات متواضع الطلبات والقدرات، وقـد تتحـول الى مخازن وموردين للجملة أو متاجـر محلية للحى أو حتى للجيرة، وفى نهاية الدورة قد تصفى اعمـالها فـإذا بمبانيها ومنشآتها تتحـول إلى استعمالات جديدة، سكنيـة أساسا، أو قد تعدل لتستقبل ورشا صناعية صغيرة لبعض الحـرفيين أو المـمـولين.. إلـخ. وبعبـارة اخـرى، تتحـول المنطقة التى تراجع عنهـا القلب القديم الى مجـرد اطراف وهـوامش أو رقـع من جسم المـدينـة العـادى بحلقـاتـه

الوظيفية المألوفة خارج القلب كالحلقة الخارجية او الحلقة الداخلية كما تسمى.

وعلى الفور فإن هذه العملية تضع ايدينا على ظاهرة فذة فريدة تختلف بها القاهرة عن المدينة الدائرية الكاملة، وتعد قلبا للعملية الشائعة فى ديناميات ونمو اقاليم وحلقات المدينة الداخلية. فالقاعدة مع نمو المدينة ان يتوسع القلب بالزحف على الحلقة الداخلية المحيطة به، فتتحول وظائفها من خليط من السكن والصناعة الخفيفة عادة الى التجارة، ولكن التحول هنا فى المناطق الشرقية من القاهرة والتى كانت القلب القديم، ثم على العكس بتراجع وانحسار القلب، وبالتحول من التجارة الى السكن المختلط بالصناعة.

على أن المهم أن هذه الحلقات الجديدة الوليدة هنا تكون ضيقة مختنقة نوعا وربما غير مكتملة الخصائص والمعالم فى هذه القطاعات، خاصة اذا ما قورنت بمثيلاتها على الجوانب وفى القطاعات الأخرى من المدينة، ولا تتسع الا مع وبقدر المزيد من تراجع القلب

وانحساره عنها. والنتيجة الصافية أن مورفولوجية حلقات المدينة الداخلية التي كانت في العصور الوسطى نصف دائرة قد أصبحت تخضع للنمط الدائري بصورة عامة، الا أنه هنا منبعج مختنق في شكل مروحي.

هذه العملية كلها لا شك بدأت في القرن الماضي حين أخذت القاهرة الحديثة تستشعر هزة التحول الحضاري الجديد، ولا جدال أنها ظلت تشتد مع شدتها، ولكننا لا نستطيع أن نتتبعها بالعين المجردة الا في الاجيال والعقود الأخيرة حيث دخلت مرحلة النضج. هذا ويلاحظ في تلك الفترة أن طغيان المصالح والمضاربات والنشاطات المالية الاستعمارية والجاليات الأوربية على اقتصاديات المدينة قبل التحرير، وخاصة في قاهرة ما بين الحربين، أعطت منافسة خطيرة وقاتلة لمشروعات وأعمال ومتاجر البورجوازية الوطنية المتوسطة والصغيرة، مثلما نشرت تطلعات الاوربة والتغريب بين الجماهير... الخ.

وهذا كله أتى لحساب القلب العصري «الاوربي»

الحديث، وعلى حساب القلب التقليدى الآفل، وساعد على تصفيته وذبوله بالتدريج. والكثيرون ما زالوا يذكرون أو لا شك سيتذكرون حالات أفلاس كثير من محلات الموسكى والأزهر.. الخ فى تلك الفترة، أما اكتمال الهجرة من القلب القديم الى الحديث فيرمز اليه ببلاغة تحول مركز الثقل والاهمية من شارع الموسكى الى شارع طلعت حرب، ومن ميدان العتبة الى ميدان التحرير. وقد يمكن أن نعتبر العتبة هى الحد الفاصل اليوم بالتقريب بين القديم والحديث فى قلب القاهرة التجارى. وفى الوقت الحالى، أصبح القلب القديم - الموسكى والأزهر والغورية.. الخ- يلعب فى كيان المدينة دورا أقل حيوية وثقلا مما كان فى الماضى، ويأخذ بازدياد دور المعقل وخط الدفاع الأخير للقديم فى كل شىء..

وعلى الفور، لن يخطىء أحد أن ها هنا ثنائية أساسية فى قلب العاصمة التجارى: قلب جديد نابض متنام، عصرى حديث الطراز فى الغرب، وقلب قديم عتيق الطراز آفل وفى انكماش مطرد، فى الشرق. وهذه

الثنائية، التي يعرفها قلب كل مدينة هامة في العالم الثالث، تلخص وترمز الى الثنائية الحضارية القاعدية التي تميز هذا العالم الثالث منذ عصر الاستعمار الأوربي والاحتكاك الحضاري مع الغرب. ومن الطريف في القاهرة أن نلاحظ الاتفاق بين الموقع الجغرافي والموقع الحضاري داخل هذه الثنائية: فالقلب الشرقي القديم في الشرق، والغربي الحديث في الغرب؛ على أن هذه الثنائية مرحلية في جوهرها وان طال الامد، ولنا أن نتوقع، ولكن ليس قبل عقود على الاقل، أن يذوب القلب القديم في الجديد لأي نهاية المطاف مع اكتمال التحول الحضاري والتقدم المادي.

وهنا وفي النهاية تفرض نفسها مقابلة لها مغزاها وطرافتها، وذلك ما بين هذه الثنائية الحضارية وما رأيناه من قبل من تجانس بشري في السكان. فاذا كان قلب القاهرة يلخص التنافر الحضاري، فان تركيب سكانها يؤكد أساسا التجانس البشري. وهذا وذاك على العكس تماما من المدينة الأمريكية: تنافر جنسي وبشري حاد

وصارخ، وتجانس حضارى إلى درجة التنميط الممـل ربما. ولعلنا لا نغالى اذا قلنـا فى هذا الصـدد ان القاهـرة أقدم عواصم العالم القديم ترمـز له وتلخصـه مثلما ترمـز للعالم الجديد وتلخصه مدينة من أحدث عواصمه كـواشنطن أو نيويورك...

الفصل الأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣,٣٤٨,٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى، والذى شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقبة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوى إلى واحة الوادى، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان ما بين الرمادى والبنى، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها

إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التى تتشبث بحضنها، فالأهرامات العجائب التى أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملى جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى إذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الأربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير، وتلال المقطم التى جاءت منها الأهرامات

والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على أبى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحى أسطورة قوطية.

أن الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الأحياء القديمة، وتهب رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها ترابًا ناعما يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادى. أن أهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب، لا مجرد زينة..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء - تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة. عديدة محال بيع عصير المانجو وقصب السكر لإرواء الحلوق الجافة من العطش الشديد. وفى أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بألوان متوهجة. وحينما تغيب الشمس أخيرًا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل

والياسمين وزخمة وحوش الفلا.

والصحراء كالبحر، هيهات أن يقال عنها خلاء محصن، بل أنها ملتقى قوى عديدة، وكما ربط البحر ما بين الجزر اليونانية في العهود الخوالي، فإن الصحراء ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط، وقد وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريخ فهي وأن اتخذت اسما عربيا فقد حظى موقعها باهتمام كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويل فعند هذا الموقع الذى يزداد فيه النيل رحابة ليضم بين ذراعيه أرض الدلتا، وهي على شكل مروحة، أقام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهرم المدرج في سقارة، وهو أقدم بناء من الحجر في العالم كله. لا يزال يطل على مقابر منف، تراه بالعين المجردة من أعلى العمارات في القاهرة) وقد أقام الفراعنة أهم مقابرهم فوق هضبة الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميدان التحرير - إلا مسافة ٤٠ دقيقة بالاوتوبيس رقم ٨. ومدينة عين شمس - هليوبوليس الآن يربطها بالقاهرة قطار المترو - كانت لها سمعة عالمية في العلوم، ولكهنتها فضل

على هيرودوث وأفلاطون. وقد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربعة.

وأشد زائرى القاهرة تأثيرًا عليها لم يأتوا ببضاعة التجارة، بل بأفكار دينية، فالقاهرة اليوم - شأنها فى ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشرى، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى إسرائيل) فى شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم فى صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم فى الإسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربى، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن «اللوجوس» أو «الكلمة» فى شرح عقيدة التجسد الإلهى، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون فى مصر - وهى مكان القاهرة اليوم - ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هربًا من طغيان هيرود. ولا يزال الرهبان الأقباط يقودون زوار كنيسة

أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام «اللوجوس» وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على افق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية. إنها مدينة مسلمة نشأت بفضل دين محمد النبى العربى. هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة، التى تتجه إليها قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثوى الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ظلال ناطحات السحاب وصروح أخرى هندسية، فإن العين لا تلحظ على هذا الأفق إذا ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرئبة للسماء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى اليوم.

وللقاهرة - لأنها مدينة صحراوية - ثروة نباتية تنفرد بها: زهور لا تنمو فى الشمال إلا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفى زينتها على ما حولها من قتامة،

أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف، أشجار الجميز، أشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت السماء لا تمطر إلا نادرا فان اللون الأخضر يشوبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذى يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذى يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات إنما يغلها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل - أطول أنهار العالم القديم - يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسى عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى.

الفصل الثانى

القاهرة.. بنت النيل

منذ أن امتنع ورود ماء فيشى للقاهرة، لا مندوحة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفًا على ماء النيل، هذا النهر الذى يلاحقه شعار: «من شرب منه عاد إليه»، وأصدق منه الشعار القائل: «من ارتوى منه لم يطق السلو عنه». أما للفلاح فماؤه، وإن عكر فهو نعمة فيها الحياة، فالناس تتشبث بهذا النهر وتلوذ به، ففى فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدًا عن شريط

الماء وضللت السبيل فستموت عطشًا إن لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول، فالمطر نادر، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم فى بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلسى عبر الصحراء الكبرى..

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات فى انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلى، فاقترن النيل بخضرة يختص بها - اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التى رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذى لا يلحق النيل فهو إباء الثبات، فإن مجراه قد خضع ككل شىء فى الوجود - لتصاريف الزمن. والخضوع هنا تنظيمى، للقضاء على نزوات النهر فى الماضى. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الإسلام هو مقياس النيل، عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة،

ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل فى الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانه بالحجارة، فى وسطه عمود له تاج من طراز كورنثى. و«الذراع» هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزومًا وأجل خطرًا من التكهنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه فى المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جدب..

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع فى أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحيب بمقدمه فى احتفال يسمى «وفاء النيل». أما فى السنين التى يخشى فيها أن لا يفى النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقى وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها - ائمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود - فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ فى كتابه المقدس - ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان

الفراعنة فى القديم يحسبون الفيضان من دموع إيـزيس وهى تبكى عـلى أوزيـريس، وكـانت لهم طقـوس تتصف بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهى رحيمة، إنها طقوس زفاف النيل العاشق وعـروسه «عـروس النيل» كانت فى القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحى أهل أثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناطور» الغول الـذى نصفه إنسـان ونصفه ثـور، ثم أصبحت العروس دميـة فى حجم فتاة.

والآن تتولى السدود تنـظيم النهر، فلن يتكـرر جفاف شهر يوليو الذى يعقبه، بشكل درامى، غمـر الماء فـوق شواطئه الطينية العامرة بـالفيران. لم يعـد يتألف مـوكب الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل فى أوائل الصيف فإنه علو قليـل، حينئذ يشكـو أهل القـاهرة من الرطوبـة تضاف إلى الحـرارة، فيهرب الأغنيـاء منهم إلى الاسكندرية، رطبة هى أيضًا ولكنها اندى نسبيًا، دع عنك شكوى أهل القاهرة أيضاً من كثرة البعوض.

لقد بدل النيـل مجراه عـلى مر الـزمن فتبدلت أيضًـا

مرافقه، فأقدم موانئ النيل على الشاطئ الشرقى للقاهرة (أما منف فهى على الشاطئ الغربى) كانت بالقرب من موقع بابيلون الرومانية إلى الجنوب من القاهرة بنت اليوم. وفى القرون الوسطى كانت الميناء هى «المقس» بالقرب من الموقع الذى يحتله الآن فندق الكونتننتال وحديقة الأزبكية، وحى المتاجر والملاهى - بطابعها العصرى - الواقع على يسار خط يمتد من ميدان المحطة «باب الحديد» إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان أرضاً عامرة بالبساتين والحدائق فى أوائل القرن التاسع عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف. وفى القرن الثامن عشر كانت الاض التى تحتلها حديقة الأزبكية مكاناً لبحيرة متسعة (وقد تقلص حجم هذه الحديقة على أثر تخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيرة فت أرضها بحيث استطاع نابوليون أن يستعرض نها جيشه. أما ميدان باب اللوق - كما نعرفه اليوم - بسوقه ومحطة الضاحية حلوان - فقد كان فى القرون الوسطى مرفأ القاهرة - بابها من ناحية النهر، فلما بدل النيل مجراه اختفى «المقس» وحل محله بولاق، وبرز من

النهر بجزيرته «الجزيرة الوسطى الآن»، ثم اندمج حى بولاق فى بقية أحياء السكنى وضاع بينها - كما ضاعت شلزى فى لندن، ولكنه كان حتى أيام نابوليون الباب النهرى للقاهرة، وكان الذين يصلون بالسفن إليها وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمنت المسلح، وكذلك الحال مع تلال النفايات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هذا القرن خليج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق إليه من مصب اندثر مكانه الآن، ليسير بعد ذلك فى اتجاه شارع الموسكى، وكان هذا الخليج يضفى - فعلاً لا مجازاً - على المنازل المطلة عليه عطور مدينة جديرة بأن تسمى «بندقية الشرق»، وقد حل هذا الخليج محل القناة التى انشأها الامبراطور الرومانى تراجان لربط وادى النيل بخليج السويس عبر شرق الدلتا، وقد بطل استخدام

هذه القناة إلى أن جددها عمرو بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن - وكذلك شارع الكورنيش - هو أطول شوارع القاهرة، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومنيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقًا أن أسماء الشوراع اسرع من مجارى الأنهار فى التبدل.

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر - كالبسفور - بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام، يلقى فيها بكثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع.

وأما فندق سميراميس يقف نوتية سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى

الجنوب. وأجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنات، وما أن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيداً إلى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول وتنتفخ بالهواء القلاع المرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم الماء على جانبى الفلوكة. إن شكلها مخلد على صفحة النيل، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العينى إلى كوبرى الجامعة، وفى أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الأسمنت وسط النهر أقامها «مصنع كروب لإقامة الكبارى».

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخر، نهر دجلة، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النمر، فدجلة نهر مفترس عنيف يطغى على الأراضى فى أسوأ موعد، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه، أما نهر النيل فهو أكثر انهار العالم نفعاً - نافع للرى والنقل على سواء، فإن تياره المتدافع دوماً نحو الشمال يحمل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، ورياحه الغالبة عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل على هذه

السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف فى تقديد الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والرقة فى بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلاً عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد فى مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هى العوامات، قميئة وإن تكن عليها مسحة رومانتيكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى. وهذه القناطر ترمز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مفتاح الماء فى بلد

صحـراوى ملك البلد كله. ويرجـع الفضـل فى اكتسـاب القـاهرة لأهميتهـا إلى أنها واقعة حيث يتفـرع المجـرى الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشـر شمالا كـالمروحـة لتـروى أرضا هى مضـرب المثـل فى الخصب. والقـاهـرة ليست مدينة كبيرة فحسب، بل أنها عاصمة كبيـرة أيضًا فى يـدها مقـاليد أمـة بلا منـازع، ولكن أهلها خليط من أجناس عديدة..

الفصل الثالث

القاهرة.. أم الألوان العديدة

ظلت القاهرة منذ مولدها مدينة[1] متعددة الألوان، حتى فى القرون التى كانت فيها «دار السلام» مفصولة عن «دار الحرب» – أى البلاد النصرانية. لم تنقطع

---

(١) كلمة مدينة هى من الكلمات التى حار اللغويون فى معرفة مصدر اشتقاقها ويقول الاستاذ الدكتور محمود حجازى فى كتابه «اللغة العربية عبر القرون» أن بعض اللغويين يرى أنها من مادة مدن ويرى البعض الآخر انها الميم ليست أصلا وأن الأصل هو دين أو دان والواقع أن البحث المقارن يخرج هذه الفروض إلى مرحلة الاثبات العملى فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون والديان فى العربية والعبرية والارامية هو القاضى و«بيت دين» فى العبرية هى محكمة كما تعرف العربية «الدائن» و«المدين» لمصطلحين قانونيين فالمادة كلها تعنى أساسا القانون وما يتعلق به =

أجناس عديدة عن الاندلاق على مصر، من بينهـا شتات الصليبيين (سنة ١١٦٣). هـذه هى حال لم تتبـدل لمدينـة لا تكف عن التبدل. طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الـذين صاروا فيما بعد حكـام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السـودان (وما كـان أكثر ثوراتهم على الجلابة تجار الرقيق، وكـان هؤلاء فى وجلهم يجعلون بيـوتهم أشبـه شىء بـالحصـون ذات الأبـواب المنيعة). وإلى جانب أولئك جميعًا تجـار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش، وأكثر من هؤلاء عددًا وتدفقًا حشـود الفلاحـين المصريـين من الدلتـا وجنبات الـوادى تجرى فى عـروقهم آثار دمـاء فرعـونية يضـاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونـان والصومـال والحبشة. وهكذا استقر من قديم طابع القـاهرة المميـز لها - طابع تعدد الألوان كما كان يبـدو فى معاهـدها العلميـة

=من ضـوابط والتزامـات. أما الصيغـة ذات الميم فظهـرت فى الارامية بمعنى وحدة قضائية، فالمدينة هى المركز الذى التفت حوله القرى المجاورة وتولت جميعًا وحدة قضائية. وعندما انتقلت الكلمـة إلى العربيـة وأطلقها الـرسول على يثرب كان هذا فيما يبدو أول استخدام للكلمة فى العربية.

وفى خاناتها التى تستقبل التجار من كل الأنحاء (ويحق لنا أن لا نعتمد على صيغة التعميم - وان كانت جديرة بالملاحظة - التى أوردتها ناشرة كتاب «دليل المسافر» سنة ١٨٩٦ عن دار موراى للنشر فى وصف أهل القاهرة إذ جاء فيه أن ابن البلد القاهرى أسرع وأذكى من أبناء عمومته القادمين من الريف فهو بصفة عامة يتميز بخصائص بادية عليه كالسحنة السمراء الضاربة للصفرة والفم الواسع والشفتين الغليظتين كاملى الخلقة والأنف البدين العريض والساقين الضخمتين كما تلحظ العين أنه صلب متين البنيان)..

وحين فتح نابوليون أبواب مصر للأوروبيين أصبح تناقض ألوان القاهرة أشد إثارة للانتباه والعجب فقد انضم الغرب العصرى على الشرق التليدى، وإن كانت الاضافة الجديدة لا تمثل أفضل الغربيين أو من ذوى الاستقامة والأمانة منهم، فقد توافدت على مصر فى القرن التاسع عشر موجات من المهاجرين الهاربين من الفقر فى بلاد جنوب أوروبا، وأصبح عدد هؤلاء الأوربيين المستوطنين بمصر يعد بمئات الألوف، وانضم إليهم جواب

الأرض فى الليفانتيين نسبهم المصريون المضيافون إلى الشام وهى كلمة عربية تطلق على دمشق وتمتد حتى تشمل سوريا ولبنان. وازدهرت أحوال هؤلاء الأجانب فى مصر - اللهم من حيث الصحة كأن الطبيعة تغدق عليهم بيد وتعاقبهم بيد، وإن سحنتهم لا تسلم من أن يغشاها شحوب رمادى أقل رواء من سمرة من يقيمون بين ظهرانيهم، ولكن رصيدهم فى البنوك كان يتمتع دائمًا بأطيب صحة..

وليس اسم العاصمة فى اللغة الدارجة هو القاهرة، بل مصر، وهو بالعربية يطلق على القطر كله. ومنذ ثورة ١٩٥٢ أصبح التمصير - عن خطة أو عفوًا - هو السياسة المتبعة، فانحسرت موجات الأجانب الوافدين، أزاحتها قوانين جديدة وإجراءات المصادرة والتأميم وتغير المناخ السياسى، وما جذب أيضًا هؤلاء الأجانب إلى العودة إلى مواطنهم الأصلية هو ما أصبح يعمها من رخاء. وأمست القاهرة أقل وضاحة وأناقة. وكان الشعب فى أواخر عهد فاروق قد سقط فى وهدة فقر زاد من وطأته أن لا نجاة منه، وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة

١٩٥٢ (وقد قامت محطة بنزين بين شارعى عدلى وثروت مكان نادى «التيرف» الانجليزى) لم يكن احتجاجا على الفقر فحسب بل كان احتجاجًا أيضًا على الترف الباذخ وسط هذا الفقر، ففى تلك الأيام الكئيبة كان شارع فؤاد الأول وشارع سليمان باشا (٢٦ يوليو وطلعت حرب الآن) ترتادهما أميرات جميلات لشراء كل ما يروق لهن من المتاجر الفاخرة، وكانت بعض المطاعم تقدم القواقع وأنواع الجبن الأجنبى ترد لها بالطائرة من باريس، بينما عاش أفراد الشعب على دخل لا يزيد عن قروش قليلة. لم يعد فى القاهرة الجديدة قمم للأناقة، فالقصد هو تحقيق الاستواء، ولا قمم تشمخ فيها الأناقة ولا وهاد يعشعش فيه الفقر..

وإذا كان هدف الحكومة هو الوصول إلى مجتمع متجانس فإن العين لا تخطئ أن تلحظ تباين الأنماط بين أهل القاهرة، فالمدينة فى ذاتها - بتعدد أحيائها وأحوالها - تعكس اختلاف الأجناس والألوان والعادات التى يتألف منها المجتمع القاهرى.

الفصل الرابع

القاهرة.. الطابع البلدى

بالقاهرة ثلاث صحف يومية - الأهرام[1] والأخبار والجمهورية - تتنافس فيما بينها ولكنها لا تتشاجر ورسامو الكاريكاتور فيها إذا تمثلوا القاهرى القح جعلوه عادة رجلا نحيلا قصيرًا مخلوع العذار،ذرب اللسان، قد يلبس نظارة، ويخب فى جلباب فضفاض من قماش قطنى مخطط وينتعل خفًا من الجلد، وعلى رأسه عمامة مشوشة - أو طاقية قطنية بيضاء، فالطربوش

---

(١) جريدة الأهرام هى أقدم الجرائد وقد أسسها الأخوان تقلا وقد هاجرا من لبنان فى سنة ١٨٧٥. وقد صدر قانون فى سنة ١٩٦٠ ألغى الملكية الخاصة للصحف.

الأحمر – وكان قد استحدثه الأتراك اقتباسًا من شمال أفريقية – قد اختفى لاعتباره رمزًا للتخلف، فلا يتشبث به الآن إلا السياح الأجانب وخدم المطاعم من أهل النوبة، ولم يرج عند القاهرة لحسن الحظ هذا الزى الذى انتقل إليه الأتراك فيما بعد «البيريه» التى فرضها أتاتورك على شعبه، وهى غطاء من القماش للرأس ينتهى برفرف أمامى، وتختص به الطبقة العاملة فى أوربا، لم تأخذ بها القاهرة تقليدًا للأتراك، فأغلب رجال العاصمة، وكل نسائها بصفة عامة يسيرون برءوس عارية.

والصفة التى تطلق على القاهرى كما يتخيله رسامو كاريكاتور كما تطلق على الشوارع الخلفية هى صفة «البلدى» وهى فى اللغة نسبة إلى «بلد» وكلمة بلدى تصف طريقة الحياة التقليدية كما تصف الأحياء التى تعيش فيها هذه التقاليد. والمصرى بجلابيته المخططة وصوته الأجش واهتياجه السريع وفضفضته فى التعبير عن نفسه بالصوت والإشارة، قد يبدو فى نظر السائح

الأجنبى الهياب شخصًا متنافرًا مع عاصمة تتراكم عليها المدنية الحديثة، بل قد يبدو شخصًا يثير التوجس، أما الذين يكلفون أنفسهم عناء مقابلته «وهو سهل المنال فى دكانه الصغيرة أو فى مقهاه المألوفة» يجدون ابن البلد هذا - ملح الأرض - شخصًا يتصف بالتواضع والصراحة وحب الفكاهة والمساواة بين الناس، فإن كان شيخًا فتوقع عنده ما شئت من مراسم حفاوة رب البيت الكريم بضيوفه. إن أساس نمط معيشتهم قد رسخ فى أقدم أحياء القاهرة حيث تراكم الزمن طبقة فوق طبقة، وحيث تقوم دور متداعية فوق خرائب قصور الخلفاء أو فوق أكوام النفايات..

والكتاب الذين تحدثوا منذ قرن مضى عن القاهرة وأشدهم دقة هو إدوارد لين صاحب الأثر المعروف «العادات والتقاليد عند المصريين المحدثين» وصفوها بأنها مدينة رحيبة تزيد سعتها على عدد سكانها حتى لتبدو كأنها غير مأهولة، ففى سنة ١٨٣٦ لم يكن قد حدث بعد، ما يترتب على نمو السكان من اختزال إلى أصغر فأصغر

للبيوت العربية الفسيحة بأفنيتها الداخلية الرطيبة، مما أدى إلى تزاحم المساكن واختفاء العناية بها. وحين نشر لين بول وصفه للقاهرة بعد سبعين سنة من التاريخ السابق كان لا يزال فى الاستطاعة التحدث بإفاضة عن الأحياء القديمة على النحو التالى:

«بعد زحام الطرقات وضجتها ستجد انتعاشك فى هذه الرقعة الفسيحة الهادئة داخل الدور، هنا تحس أن المعمار المصرى قد وفق أبدع توفيق فى الوفاء باحتياجات العيش تحت سماء الشرق، فإنه جعل الشوارع ضيقة يسقط عليها ظل المشربيات البارزة لأن الشمس تصب شواظها، فلو كانت الشوارع فسيحة كما هو الحال فى مدن أوربا لأصبحت لا تطاق. وإن جعل الشوارع ضيقة فقد حرص على أن يجعل المساكن فسيحة مع إحاطتها بأفنية خلاء مزروعة بساتين وحدائق، فحين لا هواء تصير حرارة الحجرات فى الصيف غير محتملة. وفن المعمار المصرى كان يقتضيه أن يبنى لك بيتاً لا تطل منه على جارك من خلال نوافذه ولا يطل هو عليك من

خلال نوافذك، فكان الأسلوب البديهي لتحقيق هذا الهدف هو بناء الحجرات حول فناء داخلي عالي الأسوار. وستر النوافذ بمشربيات كأنها الدانتلا تسمح بتسلل ضوء خافت ومرور هواء كان مما يتيح لمن يطل من هذه الحجرات أن يرى الشارع دون أن يتأتى للمار الغريب أن يتبينه. وهذه المشربيات - أو قل هذه الستائر الخشبية - وكذلك هذه الأفنية المعزولة كانت لازمة لنظام حياة يقضي بحجاب النساء».

وما بقي الآن من بيوت من هذا القبيل يعد من معروضات المتاحف - مثال ذلك بيتان بجوار مسجد ابن طولون، تولى ضابط بريطاني الاحتفاظ بهما بطابع القرن السابع عشر وخلع اسمه على ما يعرف اليوم بـ «متحف جاير أندرسون». وفي القاهرة القديمة بيتان بديعان من الطراز المملوكي: بيت جمال الدين الذهبي وبيت الشيخ السحيمي، بقيا محتفظين بطراز لم يعد يمثل القاهرة الحديثة - ذلك أن حجاب النساء قد سقط لزومه في حياة المصريين اليوم. ويرجع بعض الفضل في هذا التحول إلى

نزعة التجديد عند المفكرين من أمثال الشيخ محمد عبده شيخ الجامع الأزهر الذى توفى فى السنة السابقة لنشر الكتاب الذى نقلت عنه. وكان من نتيجة شيوع هذه الأفكار، مع تفسير جديد للدين الإسلامى يتلاءم مع القرن العشرين أن أصبح الآف من النساء يعملن مع الرجال جنبًا إلى جنب لا فى دور العلم فحسب بل فى المصانع والمكاتب الحكومية، وهناك فى الأزهر اليوم فتيات يدرسن علوم الشريعة..

وساير نزعة التجديد فى الفكر الإسلامى نمو مطرد خلال قرن لنظام علمانى للتعليم، فى قمته جامعتان فى القاهرة، تقوم بجانبهما أيضًا جامعة أمريكية. وأغلب الشباب من الكتاب والمفكرين هم نزعة علمانية، وبعضهم يولى ظهره للدين..

دع عنك هذا التحول الفكرى، فإن تزاحم البشر فى القاهرة يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً، ولم يعرف الريف قط نظام الحجاب حيث تعيش النساء وهن سافرات يساعدن رجالهن فى العمل بالحقول. إن نظام

الحجاب كان شرفًا مقصورًا على المدن. وكل مبالغة تقصر عن وصف ازدحام الأجساد فى القاهرة - أكبر مدن أفريقية - لا لأن أهلها يتكاثر نسلهم جيلًا بعد جيل فحسب، بل لأنها كالعهد بكل العواصم بمثابة الإسفنجة، تمتص مئات الألوف من المهاجرين من أبناء الريف، وترتب على ذلك أن كل قطار قادم من الشمال أو الجنوب يصب فى القاهرة مزيدًا من السكان. كان عدد هؤلاء السكان سنة ١٨٨٢ هو ٣٧٤,٨٣٨، وتضاعف هذا العدد عشر مرات فى سنة ١٩٦٤ وسيتجاوز أربعة ملايين حين تمضى سنة على نشر هذا الكتاب.

والقاهرة القديمة.. أى هذه الرقعة التى لا يتجاوزها صوت المؤذن فى مساجد حى القلعة، لم تعد المركز الذى يتكشف عنده هذا النمط التقليدى لحياة أولاد البلد، فهذه شبرا كانت قرية انشأ فيها محمد على قصرًا صيفيًّا له، وكانت الكتب المعدة للسائحين إلى سنة ١٨٩٦ توصيهم بشبرا إذا أرادوا الركوب فى الأمسيات للتنزه فى الريف ومشاهدة قنواته وجاموسه. أما اليوم فإذا أردت

أن تشاهد الريف فعليك أن تمضى إلى جهة أخرى: غربًا إلى الأهرامات أو جنوبًا إلى حلوان، لأن شبرا ذاتها أصبحت أشد زحامًا من إيست هام وهارلم أشد أحياء لندن ونيويورك زحامًا، واحتل نظام المعيشة البلدية مئات من شوارعها. وإذا كانت شبرا لم تعد تصلح لمن يريد التنزه فى الريف فإنها مع ذلك تستحق الزيارة بسبب أن فيها كنيسة «سانت تريزا» وهى إحدى المزارات العجيبة الموجودة فى العالم، أخذ فى إنشائها فى العقد الثانى من هذا القرن طائفة من الكارميليت تجمع بين الانجليز والأيرلنديين، وبدأ محراب صغير فيها يجتذب إليه جموعًا غفيرة من المسلمين والمسيحيين على حد سواء، والكنيسة القائمة اليوم هى مزار للأمهات المصريات، يدفعن فيه بأبنائهن أو بقطع من ثيابهن للمس صندوق زجاجى يضم رسمًا للقديسة وجدران مدخل الكنيسة منقوش عليها نذور بأكثر من اثنى عشر لغة من بينها نذر لرئيس وزراء سابق فى مصر.

و«العباسية» حتى كذلك من الأحياء السكنية التى اندلقت فيها المدينة القديمة خارج حدودها وفاضت على

الأراضى البراح الممتدة إلى هليوبوليس والمطار فقصر حبيب سكاكيني، وهو أعجوبة بطرازه القوطى وبأعمدته على هيئة فتيات من ذوات الأجسام البضة وبأطره الجدرانية المنقوش عليها زخارف نباتية حول الحرفين الأولين لاسم صاحبه الليفانتى ولقبه، كان فى الأصل معدًا لإقامة خلوية، فأصبح الآن تلتقى عنده دروب عديدة لحى سكانى مزدحم إلى درجة الاختناق. وحتى فى هليوبوليس «مصر الجديدة» تمتلئ الشوارع الخلفية بمنازل على غرار منازل الأحياء السكنية فى القاهرة القديمة، ولكنها تستوعب أجهزة الترانزستور والغسالات الكهربائية كما يستوعب عش الطائر نتفًا منزوعة من نفاية خيوط الغزل أو صفيح السباك، وتلعلع أجهزة الراديو من المقاهى، ويسير الناس فى الشوارع مرتدين البيجامات وتعرقل ٤٠ ألف سيارة حركة المرور، ويندفع رجال الشرطة بزيهم الأسود شتاء الأبيض صيفًا فى نقاش بصوت عال مع المارة حتى ليظن العابر خالى البال أن ثورة توشك أن تندلع وهذا هو طبع الشرق ثم يتحول هذا كله إلى تكشير بالأنياب سرعان ما ينقلب إلى تبادل

السلامات. وهنا طرح كبير للأطفال كطرح الكتاكيت ولكنهم كتاكيت غير متشابهة عند خروجهم من معمل التفريخ فهم أخلاط متباينة ولهم ضجة عالية، إنهم لا يزالون فى رهبة من آبائهم، كثير منهم يميل إلى الشر وبعضهم إلى الانحراف، ولهؤلاء ملاجئ إصلاحية يدخلونها إن أمكن القبض عليهم فهم خفاف فى الجرى والقفز، ومع ذلك فلا تدل الإحصاءات على تفشى هذا النوع من الإجرام المعدوم الهدف الذى هو فى بعض الأحيان طابع المجتمعات الأكثر رخاء.

والأحياء البلدية فى القاهرة جديرة بالزيارة فى جولة ستكشافية فهى بقايا لا تزال حية لمسرح ألف ليلة وليلة، وإذا كان كثير من حوادث هذا العمل القصصى العظيم عند العرب قد وقع فى بغداد فإن المجتمع الموصوف فيه هو مجتمع القاهرة، ولا يزال كثير من سمات الحياة كما تبدو فى ألف ليلة وليلة باقية إلى اليوم. وخير الطرق لاستكشاف الأحياء البلدية هو أن تسعى إليها مشيًا على القدمين، وستكون آمنًا مطمئنًا، ولكنك قد

تتعرض لاشتباكات جدلية إذا أبرزت آلة تصوير لا ترحم، فإنها قد تثير الغضب والاحتجاج من جراء الشعور بأنك تخليت عن دور الضيف - وللضيف مكانته المقدسة فى الشرق - لتقوم بدور «البصاص» الذى يتصيد عجائب القارات كما يتصيد هاوى الفراشات أنواعها العجيبة وإن هذه الأمثلة التى تجمعها لعجائب السلوك الإنسانى ستعرضها على أصدقائك فى بيتك حين تعود إليه فى جو من التندر والسخرية، والسبب أن هؤلاء الناس أصحاب القلوب الطيبة قد بدأوا يعيشون فى مأساة انتباههم إلى أنهم متخلفون، وأن اعتماد كيانهم على الدروب الضيقة والمعيشة والعمل نشرًا تحت قبة السماء قد يعد من الوصمات. والطبقة الوسطى فى المجتمع هى التى غرزت فى أذهانهم هذا الخاطر أكثر مما غرزه الاجانب. وفى الحق أن خير نتاج مصر هو الذى ينبع من هذه الدروب الضيقة، فهنا حيوية هيهات أن يكون لها قرين، وحماس وتطلع، جديران بالإعجاب، لمباهج الحياة الصغيرة الهامة تنال عفوًا.

ولكن ليس كل أفراد الطبقة الوسطى ينظرون إلى

هـذا الطراز من المعيشـة نظرة ازدراء، فـالروائى نجيب محفوظ قد سجل بعناية قصوى مشاهدها فى روايته «بـين القصرين» وهى ثلاثية تتتبع الأجيال وتعكس حياة أولاد البلد فى أدق تفاصيلها، وكـذلك يوسف شاهين وهو من ألمع المخرجين فى ميدان السينـما بمصر قـد صنع فيلمًا عن شاب مصاب بانفصام الشخصية يرتـدى الجلابيـة وجعل حوادث الفيلم تدور فى محطة باب الحديد بضجتها العالية وحواشيها الرثة الحظ.

الفصل الخامس

القاهرة.. الطابع الإفرنجي

وأغلب أولاد البلد فى القاهـرة يقبلون عـلى شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنـه، يقتبسونـه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفرنجية. وكلمة «أفرنجى» هى المقـابلة لكلمة «بلدى». إنها النطق العربى لكلمة «فرانك» وهى اسم قبيلة جرمانية استوطنت فـرنسا فى القـرن الخامس وأطلق فى الشرق على الأوربيين عامة، فهى تعنى الآن فى موضوعنا كل ما هو ليس بمصرى، أو كل ما هو أجنبى. وكـان التفـرنـج يعنى فى البـدء - عـلاوة عـلى لبس البنـطلون - الـرقص الأوروبى عـلى أنغـام المـوسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية فى حجر الاستقبال

بدلاً من لافتات الخط العربى وأثاث من طراز لويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجار بلدى! - ويعنى فوق ذلك أيضًا إيداع النقود فى بنك لا فى شكمجية كان هذا فى البدء، أما الآن فقد أصبحت جميع هذه الأشياء من صميم الحياة فى القاهرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القاهرى (وهو مسلم فى تسع حالات من حالات عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة»، وهذا لقب صيغ فى الأصل ليطلق على كل من هو مسيحى أجنبى وإن شمل أحيانًا القبطى: المصرى المسيحى أيضًا. ويعيش المتفرنج القاهرى والخواجة جنبًا إلى جنب فى وئام أشد من وئام المسيحيين والمسلمين فى قبرص، إلا أن لكل منهما حسابًا مختلفًا للآخر. قد يكون نمط حياتهما متشابهًا، ولكن «الخواجة» الذى كان من قبل يتميز بسلطان اكتسبه إبان هيمنة الغرب المسيحى على أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجة» ذاتها - وهى من ألقاب التكريم فى لبنان - أصبحت فى

مصير تبطن معنى الازدراء، لذلك يفضل الأجنبي أن يكون النداء عليه «يا سيد» بدلاً من «يا خواجة» فإن كلمة سيد في مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» في إنجلترا.

والطبقة الوسطى هي العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هي اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثورتها. وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثاً من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة في النمو، وقد نحدس حجمها من نتائج احصاءين، فبينما لا يزيد عدد أصحاب السيارات في القاهرة عن ٧٠ ألفًا نجد ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومي أو مستخدم، وفئة المستخدمين تشمل أناسًا قد وضعوا قدمًا – على الأقل – على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة فى كل الأحياء السكنية، ففى شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة فى الطرقات، تتعالى عمارات تسكنها أسر متفرنجة، وإن بقى لها أقارب فى القرية أو فى المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجى. والزمالك هى أكثرها عمرانًا وأشدها افتقارًا إلى السمة الذاتية وهى تمتد مسافة ميل ونصف فى شمال «الجزيرة»، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبى من «الجزيرة»، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة، وكان هذا النادى فى وقت ما وقفًا على الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب، واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهى أقل طولاً من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها أيضًا تعاليا، فإن عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو

البنطلون، أما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطئ الغربي للروضة تتسم مساكنه بالترف.

وفى أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصرى متزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعونى القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفى إحدى المناسبات عارضها صديق ثرى قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرًا فتحداها أن تظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًا فى آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضًا من شعره وأظافره. ولم يحدث شئ، ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا فى المستشفى على وشك الموت -فيما يبدو- بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذى كان على وشك الموت جوعًا داخل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما

سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال فى ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية فى الحال.

والطبقة الوسطى غالبة أيضًا على الشاطئ الغربى للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها – وهى الجامعة – وكذلك غالبة هى على مصر الجديدة والمعادى، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصرى شائع فيها..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها فى القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل، فالذى يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزنوج. والطبقة الوسطى فى

القاهرة - كالشأن بها فى كل بلد - هى منبت أفراد للأمة وهذا هو مبرر وجودها. وأشخاص رواية «الرجل الذى فقد ظله» - وتجرى حوادثها فى حى قاهرى - يصفهم مؤلفها فتحى غانم تعميمًا بأنهم قساة وأنهم جديرون بالسخرية والرثاء معا، ولكنهم شهود على القرن العشرين فى كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبى إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الرواية - ومعها كتابات أخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضى وأزياءه. وقد وصف فتحى غانم حادثًا بقى فى ذاكرته منذ طفولته كحادث هام، حين تحدث عن أبيه القروى الذى كان أول فرد فى الأسرة خلع الجلابية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكى آثار وشم على يده، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفى عن يد أبيه رسم الثعابين والتروس، فلما كبر الصبى أدرك أن هذا الكى فى غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صوابًا أو غير صواب فإن تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هى التى تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل: أى المبانى يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى إنشاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو مترًا فقد ظل هذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقًا رئة جديدة للعاصمة..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح، فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة. وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة

الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الإسلامي الحديث، ولكنه يشبه سلة مهملات الورق، ضخمة متعالية، وفي سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطيء جدًّا بحيث أن الذين يتناولون فيه – وسط جو من المرح – وجبة كاملة (حساء – لحم – فاكهة) إذا رفعوا أبصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا» رأوا أن المنظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.

الفصل السادس

القاهرة.. والأرستقراطية

لم يكن للطبقة الوسطى قبل أعوام أية سطوة ولم يحظوا بالسكنى فى المبانى والشقق الفخمة إلا قليلاً، فقد كانت موجودة وقتذاك أرستقراطية يحسب لها كل حساب فبيدها زمام الأمور. ومنذ سنة ١٩٥٢ سافر إلى الخارج معظم الأرستقراطيين والإقطاعيين، وفضل من كان منهم من أصل تركى، دون أن يكون منتميًا إلى العائلة العثمانية المخلوعة، الإقامة فى تركيا - واختار آخرون سويسرا أو فرنسا أو - كما فعل الملك السابق فاروق - مونت كارلو. وفضل البعض البقاء بعيدًا عن الأضواء ما استطاعوا بمعاش ضئيل (وذلك فى حالة الأمراء

والأميـرات السـابقـين) أو بمـا بقى لـديهم بعـد التـأميم والمصادرة. واستمر البعض فى شغـل القصور الجميلة التى تحوى أثاثاتهم يستعملونها كيف شاءوا بـدخلهم الضئيل. وأبدعت سيدة مجتمع سابقـة قطعًـا فنية رائعـة من تجميع قطع الزجاج الفاطمى أو من قطع أشغال العظم القبطيـة التى يمكن اقتنـاؤهـا من محـال بيـع القــطع الأثـريـة والأنتيكات، وشتان بين ما تبدعه وبين ما يصنـع بالجملة لأفـواج السياح، ويتحـول نتاج مـا تصنعـه إلى إحـدى الجمعيـات الخيريـة القبطيـة. ويعزف أمـير سـابق أنغـام شوبان فى الاستقبالات المحدودة من أجل البر أيضًا. ولا يتصور كثير من هؤلاء الأرستقـراطيين الـذين بقوا كيف يتـركون مصـر، فهم مخلصون لهـا بحمـاس يعسـر دائـمًا إدراكه ممن احتلوا أماكنهم..

ويسكن فى جاردن سيتى أثريـاء الأقباط، وكثـير منهم اقتنى الكتب الانجليـزية وتخلق بـالمعيشـة الإنجليـزيـة، ويأخذك العجب وقليل من الحزن أيضًـا وأنت تزورهم فى غـرف مكاتبهم.. التى رصت جـدرانها بـالكتب عنـدمـا

يسألونك بذهن شارد عن اسم كان ملء الأفواه فى عالم الأدب أو عن «زيد» أو «عمرو» الذى كان يشغل مركز نائب دولة أو سفير ثم بات فى هامش الحياة.

وقد نبذ الأقباط الأسماء الإنجليزية واختفت أسماء مثل وليم وجفرى وسسل، وحل محلها أسماء أكثر فطنة مثل «توفيق» أو حتى «جمال» وهى مدلولات غير محددة تنفع للمسلمين والأقباط على السواء.

الفصل السابع

القاهرة.. الطابع النوبي

والنوبيون طبقة أخرى ليس لها طابع غالب على المجتمع فى القاهرة مع أن آثار بلادهم هى محل اهتمام السياح، ووسامة ملامحهم تستأثر بشغف الفنانين والمصورين الفوتوغرافيين. وليس هناك شارع معين تقصده فتجد عنده النوبيين، بل هم يشاركون المهاجرين من القرى سكنى حى قد لا تلحظه عين القاطن العابر فى فندق هيلتون أو شبرد، وأنا نفسى لم أنتبه لوجود هذا الحى العجيب إلا حين كنت أقيم فى بنسيون فى الطابق الثالث عشر من عمارة تكاد تكون من ناطحات السحاب، فقد استيقظت ذات صباح على صياح ديكة

وثغاء غنم، فلما خرجت إلى الشـرفة وأطللت منهـا رأيت قرية متناثرة على الأسطح المستوية للمبـانى المجاورة، إذ هي تزيد فى ارتفـاعها عن ستـة طوابق، وتتكـاثر فيهـا. تقليـداً للفن الحديث زخـارف من المعدن والجص أى أن المنطقة تقابل شارع اكسفورد فى لنـدن. وجدت من تحتى بط يبطبط، وأغنامـاً تلوك حزمـاً من البرسيم، ونسـاء فى مـلابس سود تمـد أيديهن إلى أقفـاص الدواجن لتخـرج بفطور عيالهن (والبيض فى القاهرة بيض بدارى الدجاج فيلزمك أربع منها لكى تصنع لك عجة). فى كل قريـة من هذه القرى المتناثرة على الأسطح يعيش البوابون — وهم فى مساكن القاهـرة من علامـاتها المتميـزة — فإنـك لابد واجد عند مدخل كل عمارة بوابـاً — واحدا على الأقل — جالسا على دكة، يلاحق بنظره الداخلين والخارجـين، وفى أغلب الاحيـان يكون مـع رفاق لـه، والنوبيـون يحبـون المؤانسـة. إنهم يأتـون من هـذا الـوادى الضيق مـا بـين أسوان وشمال السـودان، وقراهم تمتـد طولاً، النيـل هو شارعهم الرئيسي، بيوتهم فسيحة، نـظيفة، طليقـة الهواء، جدرانها مزينة برسوم من صنع أيديهم، ما من بـاب عليه

قفل، فليس هناك سرقة، وليس هناك زنى، ويعترف القاهريون بأمانة النوبيين ويرونها سبب استخدامهم بوابين. ومع كل هذا فقد احتجت الحكومة السودانية لدى منتجي السينما المصريين لأنهم يظهرون الشخصيات ذوى السحنة السمراء فى دور الخدم دائماً ولم يظهروهم سادة مطلقاً.

وتتصف القاهرة بقدر عظيم من التسامح. قد يحدث اشتباك بين خواجه ومسلم وبين مصرى حنطى اللون وآخر من أبناء السود، ولكن لا يكون هذا الاشتباك بسبب نفور جنس من جنس. وبعض دروب القاهرة تشبه حى هارلم فى نيويورك، ولكن بدون حزازاته، وإن كان السودانيون يتجمعون فى مقاه خاصة بهم فليس مرجع ذلك أنهم معزولون عن المجتمع، بل إلى اختيارهم هم أنفسهم لهذه المقاهى، شأن المقهى التى تجدها فى كل مدينة وقرية كبيرة فى وادى النيل فيها أبناء القاهرة المغتربون عنها.

الفصل الثامن

القاهرة.. منازل الأموات

وفي أطراف العاصمة قطاع تقطنه الأغلبية العظمى. يقطنه الأموات. إنها مدينة أو قل ضاحية إن شئت، تمتد وتستدير مع مدينة الأحياء ما بين شوارعها المزدحمة وتلال المقطم - تلك الخرطة المقسمة دروبها تقسيماً هندسيًّا تتبين لك إذا وقفت عند مسجد الجيوشي فوق القلعة من أعلى الحصن الذى قد قذف منه نابليون بقنابله العاصمة الثائرة. إنها ليست أرض الجبانة وإن كانت القبور جزء منها، بل هي مدينة مسطحة وحشية اللون، لها هي أيضاً شوارعها، وعلى بيوتها أرقام كأنما تنتظر مع الصباح موزع البريد، ولكنه إذا دق

الباب لن يفتح له أحد، فإذا دفعه دخل إلى مأوى كأنه مسخ للمعتاد من مساكن الأحياء: حجرتان متجاورتان على أرضها بساط من التراب. وفي كل منهما نصب مستطيل من حجر أو جص، وتحت أرض إحدى الحجرتين يرقد الذكور من أموات الاسرة، عزلهم الموت عن الإناث المدفونات في قبور الحجرة الأخرى. ويسجى الميت على لوح من الحجر، مكفناً ولكن بلا ناووس. ومتاح لك زيارة مقابر المماليك، حكام مصر خلال ستة قرون، وزيارة المسجد الذى يضم رفات سلالة محمد على، ويرجع عهده إلى القرن التاسع عشر وله زخارف كثيرة.

وأعرف فتى مصريًّا ولد ونشأ في أمريكا، ذهب أخيراً إلى مقبرة أسرته ليحضر دفن عمته، وكان لم يألف بعد عادات بلده، فركبته الحيرة حين اقترب منه أحد أقربائه وقال له في اهتمام خاشع انه أتى إليه من بعد أن ألقى السلام على أخته. لم يفهم قوله أول الأمر ثم أسعفته ذاكرته وأدرك أن محدثه يعنى أختًا له ماتت في طفولتها قبل مولده، إنها كانت راقدة في قبر الأسرة طوال السنين وتزار هى أيضاً.

أما الذين ينكرون دوام الصلة بين أهل القاهرة اليوم وأهل منف من قبل أربعة آلاف سنة، فإن فى مدينة الأموات التى وصفتها ما يكفى للرد عليهم. كان الرومان يحرقون موتاهم، والإغريق يدفنونهم خارج المدن على قارعة الطريق، أما الدين الإسلامى فمن سنته دفن الميت فى قبر لاحد لبساطته حتى إنك تستطيع بيدك أن تسويه بالأرض (قبر الملك عبد العزيز آل سعود مع أنه توفى منذ عشر سنوات فحسب لم يعد الآن فى الرياض من يذكر أين هو ولا بقى من يزوره).

وتنفرد القاهرة دون بقية عواصم الإسلام بنظامها هذا للمدافن وما يستتبعه من واجبات، ففى الأيام المشهورة على مدار السنة – كأيام العيد الصغير الذى ينتهى إليه شهر الصيام، وأيام العيد الكبير الذى يحتفل عنده بوصول الحج إلى مكة – تحتشد الناس وتتوافد على مدينة الأموات، يحمل كل منهم سلة بها طعام كأنه خارج إلى نزهة، متلهفًا على زيارة أفراد أسرته الذين صاروا عاجزين عن لبس الأثواب الجديدة فى العيد أو التمتع بالفسحة وشم الهواء. وكان هذا هو الشأن أيام الفراعنة

فى مـواسمهم أيضـا، وان اختفت اثنتـان من عـاداتهم - الآن لا تحنيط للمـوتى، والدفن فى الضفـة الشرقيـة من .. النيل حيث تشرق الشمس، أمـا عند الفـراعنة - اللهم إلا أيام هرطقة أخناتون - فقد كان الميت يدفن - بعـد تحنيطه بنفقة باهظة أو متواضعة وفقاً لدخل الأسرة - فى الضفة الغربية من النيل، حيث مملكة أوزيريس.

وكان لصوص المقابر من المشكلات الدائمة للفراعنة، وما الأهرامات والقبور الغـائرة فى الصخـر إلا محاولات لتضليـل هؤلاء اللصوص. وأهـل القاهـرة يعانـون منهم اليوم أيضاً، شأنهم شأن أجدادهم. وهناك قوة من الحرس تجوب المقابر، من أجل أفرادها ومن أجل أسرهم أيضـاً. قـامت متاجر صغيرة تبيـع الشاى والأدوات المـدرسية. وبعض الغـرف المبنية فـوق المقابـر قد اتخـذهـا النـاس مساكن لهم، ولكن بالرغم من قوة الحـرس وبالـرغم من الغول الذى تقول الأساطير إنه يسكن فى ظـلام المقابـر، فإن كثيراً من الأسر تحمل المقص فى أكفان موتـاهم حتى لا تبقى لها قيمة تغرى بالسرقة.

الفصل التاسع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن أفريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطالع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيًا كان هو، فإنه متقارب من الدولة الحديثة. وليس من قبيل الإطراء خلعنا هذا الوصف عليها، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب. يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيًا ومستشاراً و٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و٦٥ مستشفى بها ١٣,٠٣٢ سريراً وما يزيد عن ١,١٠٠ من شرطة المرور، ليقال إن هذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة،

وهى أيضاً فريدة فى أنها تمثل مجتمعاً شرقيًّا فى صراع دائم مثمر مع الغرب، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول (وهى مدينة لابد أن يقال عنها إنها غربية فهى مقامة فى أوروبا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب، فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير فى قلب الأناضول، ولا أحد فى مصر (اللهم إلا فى شهر أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر إلى ذهنه التخلى عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف - ما بين نابليون وجمال عبد الناصر - تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها - تفخيماً لها - كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفى التاريخ للعهد الفرعونى - اسم «الأسرة الحاكمة» ومنشئ خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة فى مقدونيا بشمال اليونان، وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها

وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف، أعاد إليها محمد على - المنتسب إلى مقدونيا أيضًا - ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثمانى، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون، ولكنه قلب تبعيته إلى نظام حكم مبتدع فريد إذ أصبح يخص نابوليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة فى تحطيم المماليك فى مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابة (التى اندمجت فى القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان، انتظارًا - هكذا ظنوا - لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليون إلى باريس. ولكن محمد على - وهو فى بعض الاعتبار آخر المماليك وأنجحهم - دعا بقيتهم إلى حفل فى القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هذه

المذبحة. إنه الممر الضيق المؤدى من القلعة إلى باب العزب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون في القرن التاسع عشر فرسموه، وفقًا لأسطورة شائعة – وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا إلى الأرض. ولكن الحقيقة هي على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضًا في المماليك الذين كانوا متفرقين في أرجاء مصر.. فمن هم هؤلاء المماليك؟

إنهم في الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث في الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء المماليك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس، وأحيانًا بالتقى والورع، وأحيانًا بالانتهازية الكلبية، ولكن محال

وصفهم بأنهم مصريون. ورأس المماليك يصبح هو السلطان، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن، ولكن كان من المحبب لهم فى المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكًا أثيرا عنده، وكان هذا المملوك إما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه إلى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثانى عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه ما يكون بنظام الحكم الاقطاعى فى الغرب، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء المماليك أقل من بارونات القرون الوسطى فى فرنسا وانجلترا اهتمامًا بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمدًا فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت، على يد غزاة لا يقلون عتوًا عن التيسودور فى غزوهم لانجلترا، ولكن أعباء هذه الإمبراطورية التى اتسعت

فجأة ثقلت على الأتراك فرأوا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم إلى نهاية القرن الثامن عشر وإن بقى لموظف تركى سيادة اسمية عليها.

ومن تركة المماليك التى أورثوها للقاهرة شيئان: هذه العيون الزرق والخضر فى بعض الوجوه السمر، وهذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التى تتميز بها مقامة فوق قبورهم، كأنما انتقل إليهم بالعدوى، من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التى انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريده المقدونى لم تكن إلا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجع الفضل فى اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد على، وإن تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار إلا بعد انقضاء عهد المماليك.

ولم يشعر محمد على فى قرارة نفسه أنه مصرى قط. ولو أن ابنه إبراهيم - هذا الجندى الصارم - كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه فى ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن. وكان محمد على يتكلم التركية لا العربية، ويعد نفسه عثمانيًا لا مصريًا، ولا حتى من مقدونيا. وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الأولاد، ولكنه كان فى نفس الوقت من المعجبين بالمدنية الغربية الحديثة وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى الفنارات. والطابع الذى خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحًا. وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره، وهذا المسجد لا يعد فى نظر عشاق العمارة الإسلامية فى القاهرة من أفضل نماذجها، شأن دار الأوبرا فى باريس بين مثيلاتها. وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه - فى عاصمة مصر - يطغى على أفقها الشرقى.

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة المحمودية، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها — كالشأن فى أغلب منجزاته — كانت مهتزة الدعائم، فلم يتم لها رسوخ إلا فى التسعينات من القرن الماضى. وفى قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد، كما نجده قاعدًا فى الصورة القلمية التى رسمها له روبرت كيرزون. قال:

«وجدنا الباشا حين لقيته شيخًا عفيًّا متين البنيان، عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح المنخرين، تضفى عليه نظرته الحادة الوثابة، هيئة أسد أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ. ولكن الحادثة التى سجلت هذا اللقاء بقوة فى ذاكرتى والتى دهشت لها لأنها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن فى ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله فأخذ يبحث عنه فيما حوله، ثم ينقب فى جيوبه، فلم

يجده. وكان أثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة. استجاب لها آخر الأمر خادم سعى إليه من أقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه فى جيبك الآخر» فأجابه الباشا «فعلت فلم أجد فيه منديل» رد عليه الخادم «إذن عد إلى البحث عنه فى جيبك الأول» فلما أجابه الباشا «ليس عندى منديل» أو بكلام من هذا القبيل، كان الرد السريع الذى أتى إليه من الخادم «بل عندك منديلك» وتكرر القول والرد «ليس عندى منديل» – «بل عندك منديلك» وانتهى الأمر بأن تقدم هذا الخادم إلى الباشا وأخذ ينقب فى جيبى سترته دون أن يجد المنديل، فأخذت يده تدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشال الذى يتلفع به ولكن بلا جدوى، حينئذ أمسك الخادم بسيده مولاه وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونظر تحته ليرى ما إذا كان قد قعد على منديله، ثم عدله وأماله من جديد إلى اليسار، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام، ثم دس الخادم ساعده إلى الكوع فى أحد جيوب سرواله

الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر ومده إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفي حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصي من الحجرة حيث كان».

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التي اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد على نهازاً للفرص، يمضي الى غاياته بلا رحمة، وقد تكون اصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاحة لأنها انبعثت من دوافع باطلة - إذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص - ولكن رجلاً له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم في جميع البلاد العربية هي التي تمهد

لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من ابنائه عبقريته وانتباهه للشرق وقد وجد اسمه اسوا تخليد له فى القاهرة «فإن اسماعيل هو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى، فجاء أشد شوراع العاصمة دمامة واجتراء فإنه هتك احشاء حى من أجمل أحياء القاهرة، وهدم قصورًا وأزال حدائق وقوض جانبًا من مسجد عتيق لا لشىء إلا لكى يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عديم الذوق» هكذا قال ستانلى لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيهًا بشارع ريفولى فى باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى، فاختفى أكثرها واصبح جريحًا متناثرًا، وأصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من أقبح الشوارع فى مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعًا لخضوعهم لحكم سلالة

محمد على. كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابى - مثيل عبدالناصر فى الثمانينات من القرن الماضى. أصبح الآن يسمى بميدان الجمهورية وينقلب إلى سرادق مكيب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة إلى الخطب احتفالاً بعيد الثورة فى شهر يوليو من كل عام، أما القصر ذاته فقسم منه تشغله إحدى الوزارات «وزارة الاصلاح الزراعى» وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفرد ليكون متحفاً. وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، وما بقى منه ينم عن ذوق اسماعيل الذى كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة فى أكسفورد، وبقيت الأدوية فى الحمام الملكى كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش، وبقى الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يذوى كما ذوت سمعة صاحبه. أما القصر

الـذي احتفل فيـه اسماعيـل بالامبراطورة الفـرنسيـة ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لأسرة مسيحية من الصعيـد، هى أسـرة لـطف الله، وبقى القصـر بقـدر ما كما كان، وأن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبـل خلعه بقليـل) قائم الى اليـوم بجزيـرة الروضـة، من وراء أسواره العـريضة دروب يحفهـا نبات الصبـار أو تظللهـا أشجار البـانيان، لا ينساها من يجوس خلالهـا، تصلح أن تكون مسـرحا لفيلم سيريالى أن صنعت هذه الافلام فى مصر. وبالقصـر مجمـوعة ضخمـة من صور فـوتوغـرافيـة لملوك الـدول ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمراسم. وينقلب طـابع القصـر المستلهم من ذوق دمشق الى طـابـع عهـد ادوارد فى إنجلترا إذا انتقلنا إلى الحمـام ورأينا من خـزفه زخارف على هيئـة أزهار. أقـام الأمير عـلى أرض قصره متحفه وهو خير مكان تستعـرض فيه السجـاد الشرقى، ولوحات الملوك ورؤسـاء الدول، والمصـاحف المزخـرفة، وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التى كتبتها لها صدقها، ولكن السرعة التى يتصف بها تغيير الاحوال فى الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كلامى محمولا على الماضى، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا باسم «عمر الخيام المنيل» وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد فى الإمكان صنع فيلم سيريالى كالذى تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا - أنا وانت - لم نهضم بعد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة.

ولن تجد فى القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التراث يعد فى نظر الانجليز فى بلادهم منحدرا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة، فإنه فى نظر المصريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة. أما ابراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب

من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له أمام دار الأوبرا تـراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسي الذى اعتنق الاسلام وأصبح معروفا - إلى جانب ما يعرف عنه - بـأنه أيضـا جد نـازلى أم فاروق فقـد استمـر تمثـالـه - الـذى يمثله بسـراويله الـواسعـة وبطربوشه - قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيـل من الميدان القـريب من محل جـروبي حيث كان يعـطى بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعـات صوب الشيكـولاته، ومن حل محله ؟ تمثال باهت الشبه بسطلعت حرب مؤسس بنـك مصر.

والذين يهيم ذوقهم بعطر المـاضى الحديث هيهـات أن يجـدوا لهم غنيمة تفـوق غنيمـة زيـارتهم لمتحف السكـك الحديدية بالقاهرة، مـا دام باقيًـا. أنه منـزو بالقـرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النمـاذج والصور الفـوتوغـرافية، تشهـد باستبـاق مصر لـدخـول عصـر السكـك الحديـدية فى وقت مبكـر. وقـد وصفت لـك من سـابق محمـد عـلى وهـو يبـاحث كيـرزون فى مــد خط حديدى، وقد تم مد خط بين القاهـرة والاسكندريـة سنة

١٨٥٦. ويحتفظ المتحف فى أحد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى «بالكشك» الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى الإذن بشق قناة السويس، أنه بين القطارات عديل سيارة رولزرويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع ستيفنسون.. أول المصانع فى إنشاء السكك الحديدية إطلاقا - وتم تسليمه سنة ١٨٢٦. وقد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمى إرضاء للذوق الشرقى، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات الملمعة امتزاجا غريبا. وكان سعيد باشا - الذى كان بين أفراد أسرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء - مشهورا بأنه كان يقود هذه القاطرة بنفسه فى زياراته لاقطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القاهرة فالفضل الأكبر فيه راجع إلى إسماعيل. تدين له إحياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالى، وأحيانا بنصيبها من رشاقته أيضًا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه الثكنات البريطانية

فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق الهيلتون مكانها. ولقد أقيم فى سرة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبرا فهى إلى اليوم درة منجزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجص لتلحق إفتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردى إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو». وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعًا لأوبرا «لاترافياتا» مترجمة إلى العربية فقدم إبراهيم رفعت نصًا بلغ القمة فى قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتى استضافتهن فيوليتا فى صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر إسماعيل الذى لا يزال الحرف اللاتينى الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الأوبرا.

الفصل العاشر

القاهرة.. طابع الأجانب

يجىء الأجانب فى الصف الثانى بعد أسرة محمد على، تهم، وربما بتوالس معها - حققوا للقاهرة، ولأنفسهم - نا تم كثيرة - فالبارون هرتز يدين له هواة الفن بالشكر التقدير لأنه كان بمثابة القلب المحرك للجنة حفظ الآثار لإسلامية، فلولاه - وهذا مثل من عديد - لبلى الساتر لخشبى ذو الزخارف الدقيقة فى مسجد الماردانى وتحول لى تراب.

وهذا بارون آخر - البارون إمبان - كان الهمة الدافعة لعمران هليوبوليس الضاحية الشمالية للعاصمة، ا تنشئت سنة ١٩٠٦ ويبلغ تعداد سكانها اليوم ١٢٢ ألفاً.

وقد انفق البارون إمبان أرباحه من شركة الترام فى بناء قصر له على الطراز الهندى، يعد من أغرب الأبنية فى القاهرة، إنه من الخارج صورة مطابقة تمام التطابق لأحد معابد مادورا فى الهند ببرجه الشاهق المخروطى وتماثيله على هيئة الفيلة، وزخارفه على شكل رءوس مفزعة لمخلوقات خليط من حيوان وبشر. أما من الداخل فقد زود البارون قصره بمقاعد وأرائك من ذوق الطبقة الوسطى فى بلجيكا، واتخذ من الشباك ستائر نوافذه. وإمبان مثال للمغامرين الأجانب الذين وجدوا فى النظام الاقتصادى لمصر قبل الثورة مرتعًا خصبًا لهم، لم يكن بطبيعة الحال محبوبًا لأن تشبهه بالأمراء لم يأتلف مع سماحة الشرق. وكان يهيم بالمعارك، ولكنه حظى بصداقة الملك فؤاد، فترجم هذا العطف إلى امتيازات كبيرة غنمها.

وهناك ملك آخر شهد كيف يخفق البارون إمبان أحيانًا قليلة، فقد سبق له فى الريفييرا فى فرنسا حوالى سنة ١٩٢٠ أن قدمه بعض معارفه إلى الملك الفونسو الثالث عشر وهو لا يزال على عرش إسبانيا، ثم قام

الملك بعد ذلك بزيارة مصر زيارة خاصة متخذا له اسماً مستعاراً، فدعاه البارون إلى العشاء فى قصره الهندى، وقبل الملك الدعوة، ولما اجتاز صفوف الرءوس المفزعة وجد بقية الضيوف جماعة من أصدقاء البارون القدامى، كلهم من محترفى القمار فى النوادى الليلية، أو من ارتستات الكاباريهات، وجلس الملك إلى المائدة، وكان جلوسه هو كل شيء فعله، لم يأكل، لم يشرب، لم يتكلم وكفى أن يدوم هذا الصمت خمس دقائق حتى يصبح جيرانه كأنهم خشب مسندة، ولما انتهى العشاء قام الملك وهو لم يتحول عن صمته وانصرف.

ومنذ الثورة لم يفتح القصر الهندى الذى صار مثل فيل أسمر فى حديقة خشنة ماتت أشجارها التى لم تجد من يدفع ثمن مياه ريها. وقد أبدى أحد الأمراء السعوديين مرة استعداده لتحويله إلى استراحة لزملائه السعوديين عند حضورهم إلى مصر للتمتع بجوها، ولكن المشروع أهمل عندما تبينت السلطات البلدية حقيقة ما أعدته له هذه الاستراحة.

ولكن مـا بقى واضحًا من نفـوذ الأجـانب هى هـذه المـطاعم والفنادق ذات الأسـماء الإنجليزية ففى مطعم «سـان جيمس» - الذى اشتهـر وانفرد بتقـديم جمبرى البحـر الأحمر - يعـرض عليك صـاحبه بـزهو قصاصة ترجع بك إلى المـاضى، إنها من جـريـدة «الإجبشيان جازيت» فى عام ١٨٩٥ تقول:

«سيطبق المحل فى مكـانه الجـديد إلى المـوسم القادم نظام المعيشة الفردية حيث يجـد السادة المقيمـون حجرة للنـوم مع الافـطار تمامًـا كما هـو متبع فى حى وست إنـد بلندن فى المناطق المجاورة للنوادى الراقية الخاصة».

واختفت التقاليد الأنجلوسكسـونية تمـامًا من فنـدق شبـرد. اللهم إلا اسمـه، ويـرجـع عهـدهـا إلى العصـر الفيكتورى حين أنشأ هذا الفنـدق رجل مغـامر جسـور وجعله استراحة للذين ينزلون فى الإسكنـدرية من سفنهم ويغادرونها بالقطار ليلحقوا ببـواخرهم فى السـويس. لقد كـان فندق شبـرد القـديم معقلا من معـاقـل رجـال الإمبـراطوريـة العظام، وكـانت الجرائـد تهتم بنقل كـل

مـا يدور فى أرجـائه حـول أثاثـه الخيـزرانى ونخيـلاتـه المغروزة فى قصاريهـا. فمثلا اهتمت الجـرائد بحفلة رأس السنـة الجديـدة لعام ١٩١٥ حيث دار الـرقص حثيثًا فى القـاعة المصـرية بـالأزياء الغـريبة المبتـدعة، وفى نصف الليل.

«أعـاد صـوت تـــردد فى القـاعـــة بعض الضيـوف المجتمعين إلى الواقع حيث شاهدوا نموذجًا كاملا لطائـرة ترتفع بلطف من القاعة إلى أعلى نقطة فى صالة الـرقص، وقد جلس فيها طفل ظريف بأجنحة شفافة وتكلل وجهه ابتسامة وجههـا إلى الحاضـرين جميعا. واطلقت حمـامات تحمل أشرطة عليها التمنيات الطيبة كما قام الجميع برمى كرات ثلجية كتذكارات لطيفة، ولكنهـا لم تكن باللينـة فى حالة الضابط الصغير الذى طارت كـرته داخـل القاعـة وأصـابت وجه الجنـرال مـاكـلارن. وكـان وقتًـا عصيبًـا سرعان ما خففه الجنرال بكلمة منه رقيقة. وأخيرًا انتهى كـــل شىء ونـامت القـــاهـرة ملؤهـــا الحيـرة والتعب.. والسعادة»

أما عن أثر فرنسا فإن لغتها كانت - حتى فى ظل الحماية البريطانية - أكثر تداولا من اللغة الانجليزية، ولا تزال الليسيه الفرنسية قائمة ولا يزال الجزويت يحتفظون بمعاهدهم، والمجمع العلمى المصرى هو الوريث غير المباشر للمجمع الذى أنشأه نابليون. وهناك جامعة أمريكية، ولا تنفك تتسع، ويمثل طلبتها بعض مسرحيات تنسى وليامز.

وتتناثر فى القاهرة بنسيونات متواضعة للأجانب الوافدين من وسط أوروبا، كصديقي يانكو، وهو ارستقراطى من سلوفاكيا يهوى الرسم، ويقطن فى شقة تطل على وزارة الأوقاف. إنه يضع على عينيه نظارة سوداء، ويعيش مع كتبه ومجموعته من نبات الصبار، ويشرب الزبيب فى شرفة يرقب منها المارة، ولا يخرج من داره إلا ليشترى حاجته من سوق الخضار المسقوف فى باب اللوق أو مزيدًا من الزبيب من بقال يونانى قريب من داره، ولا يفوته حضور افتتاح معارض الرسم العديدة التى أصبحت من سمات حياة القاهرة اليوم. أما رسومه هو فبالألوان المائية على ورق غير مستو، وله

أعمال عديدة تدور حول موضوع واحد هو «الأحداث المشردون» وقد علقت بصالة الخريف. ولما سألته عن الطابع المصرى فى الرسم أجابنى «ماذا تقول؟ ليس عندنا إلا جزر قليلة أصيلة ضائعة وسط بحر من التقليد الفاسد كما كان الشأن فى الإسكندرية فى أواخر حكم الإغريق، ولا غرابة، كان الأمير يوسف كمال حين أنشأ مدرسة للفنون الجميلة سنة ١٩٠٨ قد اختار معظم مدرسيها من الفرنسيين، ولكن العجيب أن المصريين بعد انقطاع عن الفنون التشكيلية على مدى ١٤ قرناً - باستثناء العهد الفاطمى - قد أخذوا الآن يعودون إليه بحماس كبير. وخديجة رياض - حفيدة أحمد شوقى الشاعر - تعرض لوحات تجريدية ولكنى أفضل شغلها فى الحلى إنه بديع، ورءوف عبد المجيد يحيل أكواخ الشواطئ إلى تكوينات تجريدية فكأننا بإزاء عالم صامت منفرد لا تطيب له النفس وأفضل المصورين عندى هى عفت ناجى، وقد اشتهر أخوها محمد برسم هيلاسلاسى فى الحبشة قبل الحرب الإيطالية، وتستلهم عفت رموز السحر - هذا العنصر الدائم فى حياة مصر - السحر

الأصيل الشرانى، لا السحر المدعى طلبًا للتصاحب ولبريق التظاهر، ثم تحيلها إلى رسوم، وهى لا تعنى بمقاييس الذوق أو الموضة الشائعة، وهما مطبان خطران على الفنان، ورموز عفت السحرية هى من تشكيلات خشبية بارزة، فلها أبعاد ثلاثة، وتصبغها بدهان لامع كالفلورسنت»

أعود إلى صديقى يانكو، إنه تحول الآن إلى التصوير الفوتوغراف، وقد ظل مرة ساهرًا طول الليل ليلتقط هذه اللحظة الخاطفة التى يزهر فيها نبات صبار مرة كل ثلاث سنوات.. ويقول يانكو بشىء من المرارة «الزهور؟ نعم! القاهرة ملأى بمتاجر الزهور، ولكنها عند المصريين أشياء توضع فى سلة مفضضة، محزومة بشريط طوله عشرة أمتار، وترسل لحفل زفاف»!

وأقول من جديد أن هذا الذى أكتبه قد عفى عليه الزمن، فقد تلقيت أخيرًا من يانكو بطاقة بريد مصورة وعلى طابعها خاتم ميونخ.

الفصل الحادى عشر

القاهرة.. الطابع الإسلامى

العمارة الإسلامية التى ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل. وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة إلى الإسلام، لأن نسبتها إلى السراقنة - كما فعل القرن التاسع عشر دائمًا - منافية للدقة والصواب، ولأنه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم، لا يجوز إطلاقًا نسبتها إلى العرب، وها هو ذا الأستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم، وقد يغتفر لى أن ألجأ إلى الصفة المشتقة من كلمة «الإسلام» لأنها الاسم الذى يطلق على

هذا الدين وحضارته، فهى أفضل عندى من كلمة «المسلم» التى هى صفة من يعتنق الإسلام، فمن محامد النسبة التى استخدمها أنها تنطبق على أبنية أنشأها معماريون مسيحيون.

وحتى القول بان هناك مدنًا أخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الإسلامية أو فى صدقًا وكمالا هو قول موضع نظر. حقًا إن كل من زار بورصة (فى الأناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الإعجاب بألوانها الزاهية، وإن عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى لواء كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع، وإن ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته، ولكنها جميعًا إما أبنية فرادى، وإما – كما هو الحال فى بورصة – أبنية من نتاج عصر واحد. أما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنًا بعد قرن، يتدرج من السذاجة عبر البساطة إلى تعقيد التركيب، ومن الإزدهار العفى إلى الذبول السقيم. وهكذا فإن سجل

حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرنًا هو الآن معروض للناظرين. وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف. لذلك إذا أردنا أن نتذوق الفن الإسلامى بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما فى قصر الحمراء، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه - كما فى عمارة الهند - فينبغى لنا، كما يقول ستانلى لين بول - أن نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها.

وإذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائى لأحيائها السكنية تبدو مختلطة المسالك، فإن ميزتها أنك إذا تأملتها بصبر وجدتها لاتكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب. بل تكشف أيضًا عن اختلاط جانب دخيل وجانب أصيل لحضارة تتمركز فى القاهرة، وهى إذ تكشف تفسر.

إن مشوارًا طويلاً فى يوم واحد (وإن كان من الأفضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة إلى الجنوب الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما تفهم تطورها.

وينبغي أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبي للقاهرة بنت اليوم. وأفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحي من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة في الدرجة الأولى ثلاثة قروش، أي مايعادل ستة بنسات) ثم تنزل في المحطة الثالثة.. محطة مار جرجس، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لاتخلو من دمامة. أحن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة الرومانية، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة في غد، ثم امض في طريقك واسلك دربًا معتمًا متربًا يحاذي السور الذي يضم الكنائس، فإذا بك تصل إلى أقدم مسجد في القاهرة.

وقد تم فتح مصر سنتي ٦٤٠-٦٤١م وفاتحها هو عمرو بن العاص، وكان في شبابه من أصحاب الرسول الذي توفي سنة ٦٣٢. وقد جاء عمرو من الأراضي العربية حيث - ونحن ننقل مرة أخرى كلام الأستاذ كرسويل - «لم يكن لأهلها العرب قبل الإسلام - فيما يبدو - إلا فكرة بدائية عن فن العمارة، فلم يكن معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن أربعة جدران في قامة

الرجل تدور حول بئر زمزم، وبعبارة أخرى كانت الأراضى العربية تمثل فراغًا معماريًا تامًا أو يكاد». وعمرو الذى شرب من ماء زمزم كان قائدًا عبقريًا، سلس الإيمان بدين سلس، فكان فى حاجة إلى جامع يؤدى فيه صلاته. لاشك أنه رأى هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت لها فى الأصل، إنها تختلف عن الكنائس الواقعة إلى الشرق من مصر فى سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكتونة، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها إلى الاقتصار فى غموض على الذات.. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلًا يشاركون فى كنائسها، يصلون فى جانب، ويصلى المسيحيون فى الجانب الآخر.

واليوم فى الموقع الذى تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته، لانرى إلا سورًا عظيمًا من الآجر المغطى بالجص، كأنه مهجور، له ثلاثة أبواب، فإذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل، هذا البهو فى الوسط يسمى بالصحن، إنه مصطلح فنى يحسن بنا أن

تتذكره، وإلى أمام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الأروقة، وهى غابة من الأعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين.

وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط، كان فى الأصل معدًّا فى المحل الأول لأغراض عسكرية، ليتاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم فى أمن. لم يبق منه اليوم إلا أشباح تتراءى فى الجامع الذى نزوره، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء آخر، لأن جامع عمرو كان يوم إنشائه ضئيلا بالقياس إليه اليوم، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التى استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية. هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ فى ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالجص، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين، كما كان حال بيت الرسول فى المدينة، أما الجدران فكانت من اللبنات. وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه. ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة أخرى

إلى زمن محمد على، وهو اليوم أفضل بداية لجولة فى القاهرة الإسلامية.

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها فى هذا الحى الفقير) ورضينا بالسير على الأقدام، وجدنا أنفسنا نطأ أرض أول موقع للقاهرة الإسلامية.كانت مدينة من الخيام تصبها البدو.. حقاً إنه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوان فخارية بدائية.

وكانت حركة العمران فى القاهرة الإسلامية تتجه دائماً إلى الشمال.

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط وإلى الشمال منها مسافة ميل واحد، انشئت المدينة الإسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسى. فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التى شيدها الخليفة المعتصم، وقد أعياه تتابع الصدام فى بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك، مدينة لم يسبقها فى الضخامة والطموح إلا مدينة روما العتيقة،

فقد كانت فسيحة الطرقات، تتقاطع متعامدة، ولا يزال تخطيطها الهندسى بيناً عند تصويره من الجو، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم. ولأن ابن طولون، وهو نفسه من الاتراك – قد جاء من هذه المدينة الكبيرة، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة، وكذلك وجد اشباعه جامع عمرو – رغم أنه كان قد زيدت مساحته – أصغر من أن يفى بحاجتهم لأداء صلاة الجمعة. أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معاً.

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعب بالكرة من على ظهور الخيل، أى لعبة البولو الحديثة). خلة واحدة تؤلف بين العرب والأتراك وهى عشق الخيل، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شىء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الإسلامى الذى يطرح الفوارق القومية التى يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه إلحاحًا شديدًا. وكان ابن طولون متديناً، تقيًّا، ورعاً.

وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعه.

حقا إن وصوله إلينا سليمًا يعد من الخوارق، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون. بل هو عندى يوحى بفيض أكبر من القداسة، إنه أميل فى الشبه إلى معبد فرعونى منه إلى معبد إغريقى، فهو يخفى جماله من وراء أسوار لابد لمن يؤمه من المؤمنين من اجتيازها. وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان، ولكنه لا يطاول الأكروبول فى الارتفاع، فأنت تصل إلى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام - وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دميمًا. فإذا جاوزنا المدخل ألفينا أنفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر، وينكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار. وفى وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع إلى سنة ١٢٩٦، وهى أقل قيمة من القبة الأصلية التى كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر، طلباً للجمال وحده لا للنفع، فنحن نعلم أن ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبذولاً ميسرًا من وراء الجدار الغربى

للجامع الأصلي. إذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هي الواحة والعقود هي الغابة التي ترمز لما في النفس من تشابك المنازع المتضاربة، فيطالعها في ظلال الأروقة جو رطيب يشعشع فيه الجذل الروحي ويخيم فيه السكينة الداعية إلى الاستغراق في التأمل والاستعبار، فالمسلمون الذين أخضعوا صحارى الشرق الأوسط لم يألفوا الغابات إلا قليلا، ورأوا غابات النخيل على شاطئ دجلة وغابات شجر الأرز في جبل لبنان، إلف نادر وقصير الأمد، فهو يتوهج في الذاكرة كما يتوهج القرآن الذي نزل في مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنان، فالسماء والصحراء والماء والغابة، هذه الأشياء الأربعة إنما توحي بشيء خامس ينطوي في وجوده وجود كل الأشياء: الله. فأنت في هذا المبنى لا تستشعر الله في رؤيتك لتمثال – فليس في الجامع طبعًا تماثيل – أو لتفاصيل من زخارف، ولو أن الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال، بل تستشعره في هذا الانسجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها..

وفى المساحة التى أضيفت للجامع وفى حضن أسواره العالية تقوم مئذنة من الحجر الرملى، كأنها مسخ لطراز معمارى قديم، فنصفها مربع ونصفها اسطوانى. وقد تعددت واختلفت الآراء فى تعيين هذا الشكل العجيب، فهناك رأى يقول إن ابن طولون كان رجلاً منصرفًا إلى عمل نافع أو متحفزًا له، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسًا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة فى استغنائه عن الأعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس، فرآه جلساؤه يلهو بورقة فى يده، ويلفها فى غير مطلب، فلما أحس أنهم ضبطوه وهو يعبث أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفًا إلى عمل نافع يتدبره، وقال لهم من فوره «اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط الذى فى يدى».

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطى الماثل فى جامع سامرا، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت فى بابل قائمًا

فى زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدمًا إلى الآن فى أفق بغداد. ولكن إن كانت عقود الجامع وهى من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص، وكذلك زخارفه فى الأزوقة وحول الشبابيك باقية كما كانت فإن المئذنة التى نراها اليوم ليست هى التى كانت قائمة فى البداية، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين فى عهد المماليك. والمئذنة فى شكلها التى اتخذته فى عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو أحيانًا فتبلغ حد التخنث، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمئذنة إلى أصلها الذى عرف كيف يقتبس فى غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المنسابة التى ميزت المخروط الهائل فى مسجد سامرا. ولم تكن المئذنة منذ إنشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة، إذ كانت المآذن - هذا الشكل المعمارى المستقلٍ - تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونًا عديدة. وكانت أوائل المآذن أبراجًا مربعة حول الكنيسة الكبرى فى دمشق التى أصبحت فيما بعد مسجدًا. وكلمة مئذنة فى الأصل تعنى «مكان يسترعى فيه الانتباه» وكان يمكن أن

تطلق على فنار كمنارة الإسكندرية.

والمدينة الإسلامية الثالثة - تلك التى اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع إلى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل، وكان إنشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه. لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسى وتعتمد على قدميك، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبًا.

هذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية - متينة عفية - من طراز بيزنطى. جناحاها المحصنان ترتفع فوقهما - كأنما تتهلل لنا - مآذن رشيقة أقيمت فى عهد لاحق. كانت تتهلل فى الماضى للمجرمين، هى حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفيًّا لسيدى المتولى، إنه قديس يطير فى الهواء من مكة إلى القاهرة بالسهولة ذاتها التى يطير بها بطل من ألف ليلة وليلة، إليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج

بأوراقها ما بين المسامير وخشب الباب، أما استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير.

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمى «باب المتولى». وهناك طريقان سهلان يؤديان إليه كلاهما ممتع لك. فإذا كنت تمشى مرخى القياد، غير متريث لتتأمل أثرًا معماريًا تقصده لذاته، إنما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذى تنفثه عمائر مسلم لها كمالها، أو تعرضت للبلى، فإن سيرك فى أى الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان ما بقى فى نفسك من جو القبور التى تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو.. أو من صرامة الجد والاحتشام التى استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الأساسية. وتكفيك نظرة إلى أى خريطة لآثار العصور الوسطى فى القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين فهما يتحاذيان أو يكاد، ويتجهان إلى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك، وبدايتهما واحدة، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلى

فوق رابيته، فإذا خرجت من بابه انعطفت إلى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقًا وغربًا، هابطا من الميدان الكبير تحت القلعة إلى أن يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل.

وشارع الصليبة شارع جدير بأن تعود إليه بالليل. ترى فيه «سبيلًا» من طراز تركي، وحمامًا عتيقًا أسدل على بابه - كستارة - بشكير حمام يستعمل كإزار، وجامعًا له قبتان حيث يرقد اثنان متصدقان من رجال المماليك، والأفضل أن تكون هذه الجولة الليلية آخر شيء تفعله قبل أن تأوى إلى فراشك، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل، ولكننا الآن بالنهار، فأنت إذا تابعت شارع الصليبة فى صعوده إلى القلعة بلغت مفترق طرق، ورأيت مشربًا للشاى - شتان بينه وبين أمثاله فى أوروبا رغم وحدة الاسم. قد تخير مكانه قبالة «سبيل» انطلق فيه فن العمارة التركى على هواه، حتى لتظن لحظة أنك أمام منظر فى أواسط آسيا لا فى إفريقية، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال، وخمسة اضلاع بارزة

النقوش وفق الذوق التركى، وشبابيك حواجزها مصنفرة بدقة وتداخل بارع. بجـانب السبيل دكـ البصل، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء. إلى جـو مشرب الشاى رجل لفه الذبول يحتسى قدحًا من باللبن.

سأعيد لك وصف جولتى محـددًا زمن كل رحلة للقراء جاعلًا قيامى بها فى يوم معتاد من أيام شهر والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول مؤد إلى باب زويلة، يسمى ابتداؤه بشـارع السيوف يمتـد مستقيمًا وإن تغير اسمه أربـع مـرات، ولا ي إلا شارعًا واحدًا كبيرًا، وهـو الشارع الـذى كان من قبـل شارع محمـد على وأصبـح اليوم يسمى ب القلعة، فإذا بلغته فجاوزه محـاذرًا حركـة المرور ا فيـه، وتابـع سيرك فى نفس الاتجـاه فإنـه الطريق اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات، ما هـو إلا واحـد متصل. إننى أمـر بذبـائح الجاموس وعـلى أختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل أول ا

للبطاطس – وهو معروض أيضًا أمامي للبيع – من أمريكا للقاهرة، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودًا في نسج السجاد، ها أنا ذا أرى صدفة أربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها، ثم أمر بعد قليل ببرميل ممتلئ بالفلفل الأخضر اللامع فيهيج شوقي إلى أن أصنع لنفسي «سلطة» متبلة، ثم بأكوام من الطماطم، حباتها كبيرة. شتان بينها وبين طماطم أوروبا التي لا تزيد في الحجم عن كرة البلياردو – ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين في لوحات المصور بروجل، ثم إذا بصبي يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحًا بحزمات خضراء وهو ينادي بصوت عال «نعناع. نعناع» كم هي عسيرة هذه الكلمة على نطقي، ولكن ها هو عطر جديد يختلط ببقية العطور التي تملأ خياشيمي، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الأحذية والشباشب والصنادل، ثم ها هي امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقًا اسمه «الدقة» وهي اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة، شتان بينها وبين الفلفل، إنها لا تهيج شوقي إلى دخول المطبخ. ثم أمر بدكان مشيد حديثًا بالأسمنت

المسلح، فهو دميم في هذا المكان، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلاً ويستطيل، أدخل مقهى أمامها سقيفة، بلدية هي ولكنها مريحة، عليها لافتة تقول «قهوة محمد ناصف وأولاده» وأشرب فنجاناً من قهوة ناصف التركية «سادة» أي خالصة بغير سكر. على حين يمر أمامي حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة، حشرت في أفواهها سدادات مكورة من الورق، هي قدور الفول المدمس، إنه الطعام المفضل الذي يلتزمه المصريون لفطورهم، يخلط بالزيت ويتبل. ادفع ثمن قهوتي ما يعادل خمسة بنسات - ثم أمضي فأمر على «قصارى» الأطفال من قبل أن أدخل إلى القسم الاخير من الطريق. إنه سوق مسقوف «وكلمة بازار الشائعة في الهند غير مستخدمة في مصر». وهذا السوق أمتع بكثير من سوق خان الخليلي ذائع الصيت، فخ السائحين من قديم. فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذي يرسم لك أقرب صورة إلى الصدق باقية إلى اليوم من حياة الناس في عهد المماليك.. أبواب ضخمة - متروكة

الآن مفتوحة دائمًا - رشقت فيها كرات من حديد، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح إذا ثارت ثائرة المماليك، هنا تستطيع أن تشترى بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به، كلها من أجل الدواب، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول رأس الحصان من خيوط صوفية، وهى أشياء تقصد أيضًا إلى الزينة وإن بقى لها نفعها وثمنها معتدل، ثم إذا بهذا السوق الذى يتسلل إليه - كأنما من مصفاة - ضوء شاحب، ينتهى فجأة عند باب زويلة. هنا أنظر إلى ساعتى، إن مشوارى من جامع ابن طولون - مع حساب تريثى لشرب الشاى عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده - قد استغرق من وقتى ساعة كاملة، لا تزيد ولا تنقص.

أما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الأول فى المتعة، وإن كان أطول وأكثر تعرجًا، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك، ثم انعطف فى أول شارع يتجه بك يمينا إلى القلعة فتجد جامعين كبيرين - أحدهما جامع السلطان حسن الذى ستزوره فيما بعد - يحيطان بالطريق وهما

على حافة وسحابة صغيرة، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلعة الذى لا يخلو من دمامة، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو أبنية متداعية تريد أن تنقض، حتى إذا بلغت نهايته اتجه يسارًا إلى شارع التبانة الذى يمر بجامع الماردانى[1].. ثم يتجه غربًا فيحيط بالدرب الأحمر، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وأنغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الأصيل الذى عرفناه. وإذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخًا على يمينك غير مواجه لك.

(١) بنى جامع الماردانى فى سنة ١٣٣٩ وهو يمثل خير تمثيل قدرة المزج فى الفن العربى الإسلامى، فأعمدته من كل شكل وحجم. فمنها الجرانيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية، وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو بالأزهار ذات الطراز الكورنثى بل إن بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب. ولكن الطريقة التى وضعت بها تضفى على الجميع وحدة تدعو إلى الدهشة مع أناقة تؤثر فى النفوس. وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة من طراز جديد واحد هى إحدى السمات الواضحة فى الفن الإسلامى العربى. كما أننا نرى فى المشربية التى تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالأعمدة المقنطرة مثالاً رائعًا فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر الميلادى وإن تجدد أكثره. وقد كان الماردانى ساقيا للحاكم المملوكى الكثير الشهرة الناصر محمد بن قلاوون وزوج إحدى بناته، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته.

وهكذا تجدنى دائم السعى إلى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هى محط الأنظار، وإنها لكذلك، فهى المدخل إلى القاهرة الأصيلة.

وكما أن لندن الأصيلة عبارة عن نواة مسورة فى وسط سوق أقيم حولها، فكذلك القاهرة، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الأرض لا يزيد ضلعها عن ألف خطوة. هذه المدينة الداخلية التى بنيت أصلاً لتكون مقرًا لشئون الحكم والدين، لا للإسكان والمعيشة، هى مدينة القاهرة. وهذه المساحة يحدها شمالاً الجزء الشمالى من سورها الأصلى، وشرقًا سور صلاح الدين الذى أقيم فى فترة تالية، وجنوبًا الدرب الاحمر وامتداده تحت الربع، وغربًا مجرى الخليج القديم.

واستمرت القاهرة على شكلها الأصيل مدة قرنين. أما أصل بنائها فمعروف لنا تمامًا.. فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهى الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين الله. أما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل أوروبى،

ومولاه هو رابع من تولى الحكم من أسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها إلى السيدة فاطمة بنت النبى[1] التي تزوجت من على ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسًا للدين. وانبثقت فرقة من الإسلام - وهى الشيعة - تؤمن بأن الإمامة وقف على سلالة على من فاطمة. ويتبع مذهب الشيعة حاليًا نصف سكان العراق تقريبًا وكل سكان ايران بينما تخلو منه مصر فهى تتبع المذهب السنى، فى حين كان مذهب الشيعة هو الأساس فى إنشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الآن من باب زويلة، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ ما نقش عليه بالخط الكوفى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وهو ما يدين به المسلمون جميعًا، مضافًا إليه «على وصى الله».

أما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة.. ففى ذلك قصة طريفة. فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذى حدده على الأرض بواسطة قوائم

---

(١) لقد توفى كل أولاد النبى الذكور قبل البلوغ.

من الخشب، وأوصل أعلى هذه القوائم بحبال مدلى منها أجراس، ووقف المنجمون المغربيون على استعداد يتفحصون أدواتهم وطوالعهم الفلكية حتى إذا اطمأنوا إلى دخول الوقت المبشر بالخير، حركوا الحبال لتمر عبرها الحركة - كتليفون بدائى - فتدق الاجراس إيذانًا بالعمل، ولكن الذى حصل هو أن غرابًا وقف على الحبل وسبق المنجمين فى هزه وإعطاء الإشارة، فانهالت الفئوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الأرض. ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك، فاكتفى المنجمون بأن يحسبوا الكوكب صاحب الطالع وقت الخبطة العشواء فوجدوه المريخ. ذلك الكوكب الأحمر اللون واسمه «القاهر» فأطلقوه على المدينة متحدين بذلك النذر التى يحملها معه وبذلك سميت المدينة «القاهرة» واجتازت النذر بأمان.

ولأفراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة، فهم من ناحية من أصل عربى لا تركى، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم، ثم إنهم بحكم شيعتهم قد انفصلوا عن بقية العالم الإسلامى. فظهر فى الفن اتجاه حسى لم يظهر فى العصور العربية الأخرى، اللهم

إلا فى إيران الشيعية، وبدلاً من أن نرى الزخرفة العربية الجافة، نجد منقوشًا على أوانيهم الخزفية صورًا لعازفى العود، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب، وتظهر لهم عيون واسعة وعمائم كبيرة، كما نجد رسومًا لحيوانات أيضًا، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف فى المتحف الإسلامى.

ويتميز الفاطميون أيضًا بالسرعة والهمة فى الإنشاءات، وخير دليل على ذلك ما نراه إذا ما اتجهنا شمالاً إلى منتصف المربع، ففى السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر أساس مسجد وجامعة الازهر فى ٣ ابريل فى الجزء الشرقى من العاصمة الفاطمية، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبى العلم فى سنة ٩٧٢.

ولا يزال هذا الجزء من القاهرة - الذى كان أصلاً المدينة الفاطمية - سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمال مما استحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن إنشاءات العصر المملوكى ذات الحدائق

الداخلية – وهى مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال. وطالما شكا النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم، ومنهم ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عامًا إن «المصلحة التى تعنى بتخطيط الشوارع إنما قامت بمهمتها بأفق ضيق من الفكر فى خدمة المدينة» ولكننى أقول إن كل مدينة – بله العاصمة – لا يمكن أن تظل على حال واحدة مثل مدينة محنطة، فالناشئة من الأطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الأسمنت وأسياخ الحديد؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الآثار يعطى مجالاً لتصور ما كان عليه الحال فى الماضى.

إذن فلنأخذ الآن الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى الجنوب إلى باب النصر فى الشمال، وخير رفيق لنا فى هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى «جولات فى القاهرة» فهى ترشدنا فيه – كأحسن دليل – فى لغة سهلة صريحة، وعن علم خال من الحذلقة إلى ما احتجب من آثار الماضى فى أماكنها غير الجلية، وهى قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا إلى اغفالها فى هذا الفصل

من الكتاب. ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول إلى سبعة أيام أو أكثر يقضونها في القاهرة مع كتابها ونعود فنتقدم في طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والآثار البديعة الأخرى التي خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو في شارع بين القصرين الذي يصل باب زويلة بباب النصر حيث نكافأ في نهاية مسيرتنا المضنية في الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الأسوار العظيمة مباشرة..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم إلى القائمين على رعاية التراث الإسلامي، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمى أولاً بالجامع الجديد وبالجامع الأبهى ولكنه يقف الآن في الناحية الداخلية من المدخل الشمالي للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب. والأسوار تغطي الجامع وهي حماه، فلكي نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكانا فوق أحد برجي باب النصر. واعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه لأشار أول ما يشير على الأقل إلى هذه الأطلال في

القاهرة. صحيح أن فى القاهرة جوامع أكبر حجمًا ولكنه يتميز عنها أنه أقيم لحاكم عربى الأرومة، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير فى مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونا، فى حين كانت الترميمات تافهة، فسقط كثير من الجص المنقوش عليه بالخط الكوفى، ومع هذا فله مئذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة، كما انتشر البلى فى المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتها، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنًا من أركانه.

وقد قدمت اقتراحًا لأحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلاً من إهماله خصوصًا وأنه يقع فى مدينة ينادى بها قلبًا للعروبة فأجابنى: «ربما كان الكره الذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب فى إهمال جامعه».

والحاكم - حفيد المعز - كان أشبه بالامبراطور كاليجولا الرومانى. إنه كان مدللاً شديد الأنانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب، كما

كان مصدرًا لكثير من المضايقات للناس فى التافه من الأمور وفى خطيرها، وظل كذلك حتى لقى مصرعه. قتله شخص مجهول فى الصحراء اثناء تجواله فيها وهو راكب حماره. وكان من ضحاياه الأقباط فقتل منهم الكثير، وبائعو الملوخية التى حرمها، وهى طعام صمغى القوام محبوب عند المصريين إلى يومنا هذا، وحرم صنع أحذية النساء منعًا لهن من الخروج من بيوتهن ليلًا ونهارًا، ومنع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم وقطعها، كما حرم أيضًا اللعب بالشطرنج، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة، الأمر الذى يجعلنى أنفر منه. ولكن لابد أن هذا الوحش المتأله كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه إلى يومنا هذا ويجعلونه رمزًا مجسدًا للفضائل التى تجمعت فيه. ومع كل فإنى اتردد كثيرًا قبل أن ألج هذا الجامع ليلًا ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج ما تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل البرج المربع الذى تسمو منه المئذنة إلى طرفها المزخرف ويصدر عنها عجيج يطغى على ضوضاء المارة فى الطريق.

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد: طابع العزة الدينية، تمامًا مثل جامعى عمرو وابن طولون، نبعت من هذا الدين الذى ينزع إلى الديمقراطية فى أحد نواحيه. فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم، يندمج فيهم الخليفة ولو حضر فى فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه. وكانت هذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح، وأعنى بالشعب هنا المسلمين، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية وأخرى تركية، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفًا خلف إمامهم يسجدون لله كما علمهم النبى العربى.

ولكن فى جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرًا ما. ذلك أننا نعلم أن هذا الخليفة كان مختل العقل طاغية، ونعلم أيضًا أن حراسه الذين خصصت لهم أحياء كاملة فى المدينة صارت لهم سطوة طغت أو كادت على سطوة الشخص الذى كلفوا بحراسته، فكانت هذه الرقة فى عقود الجامع التى توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء

حتى فقدوها كلية، وظهرت الرشاقة إلى حد الأنـوثة التى تبتعد عن الروح ذات البأس التى نراها متمثلة بوضـوح فى أعمـدة جامـع ابن طولـون أكثر من أى مكـان آخر، فهى مؤشرات تدل على أن الإسلام فى عهد الحاكم ابتـدأ فى الانكماش والدفاع (انتهت الدولـة الفاطميـة عندمـا احتل الصليبيون القاهرة لمـدة قصيرة سنـة ١١٦٣). ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ما كانت تدل عليه فى القـرون الأولى عنـدمـا امتـطى المسلمـون خيـولهم مشرقين ومغربين، لا حدود تفصلهم عن الدنيـا بأسـرها، ثم بـدأت الفـرقـة بينهم، ومـا كـان الخليفـة الفــاطمى إلا واحـــدًا من الـــذين ادعـــوا حق السلطان لأنفسهم ونافسه فى ذلك صاحبا بغداد والأندلس.

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيـارة أجرة، وفى طريق العودة. على بعد مئات قليلة من الأمتار وفى شارع بين القصرين الذى اجتزنـاه من قبل تـدع السيارة تقف بنـا هنيهة - دون أن يبـطل عـدادهـا عن العـد - عنـد الجامع الأقمر، وهو أحسن جوامع الفاطميين حفـظًا، وله

واجهة جامدة ضئيلة الزخرفة كعادة الفاطميين. ولا نتلبث عنده إلا قليلاً، ونطلب من السائق أن يتوجه بنا إلى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل، وسيسر حتمًا بمنحة قرش أو قرشين زيادة.

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح أن المستوى الحضارى للدين - وليست العقيدة نفسها أو تعاليمه - قد ناله بعض التغيير. كما أن المبانى تغيرت فى الشكل والروح، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طولون فى إظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التى صممت لتدخل الرهبة والخشية فى نفوس المتعبدين ويشبهها أيضًا فى إقامة هذا البناء المتعالى الضخم لأجل ان يضم رفات إنسان ضئيل. ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة، وفى نهايته نجد صحنًا واسعًا مكشوفًا للسماء التى تبدو بعيدة لأن الصحن محاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال أنه محاط بغابة من الظلال. ويوجد الضريح خلف إيوان

القبلة فى قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذى كان مستعدًّا لاستقبال جثمان السلطان حسن، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية أولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذى كانت له سطوة وقوة. ولكن ابنه حسنًا لم يستطع أن يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين. وكفاه ذكرًا أنه أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلاً أيضا على حالة الدول الإسلامية فى أواخر العصور الوسطى.. وهذا الجامع ولو أنه بنى خصيصًا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم أيضًا أربعة مدارس، فعلى كل جانب من جوانب الصحن يوجد باب يؤدى إلى مدرسة يدرس فيها أحد المذاهب الأربعة المعترف بها فى المذهب السنى، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدًّا ولا يمكن أن تقارن بما بين مذهبى السنة والشيعة من اختلاف. ومع ذلك وبالرغم من هذه الرعاية كما نراها فى هذه المدارس وفى الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيه رمزًا للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميله إلى المصريين

كـان مملوكًا أى غـريبًا من طـائفة لم تنـدمج من الشعب سواء كانوا فى عز قوتهم مشيدين أو كانوا فى قلة حيلتهم متقلبين. من هنا نرى أن جامـع السلطان حسن قد قـطع بنا شوطًا طويلاً بعيدًا من روح عمرو الذى أقـام مدينـة من الخيام وبنى مسجدًا متـواضعًا لجنـود ولى عليهم وهم معـه سواسيـة. عمرو هـذا الذى قـدم من بـلاد العـرب المحمدية حيث كان النبى يرفع ملابسـه فى بيت متواضـع وحيث شـاركت النسـاء فى غـزوات الحـروب ونـــدوات الأدب، بينـا نشأ السلطان حسن عـلى تقاليـد دعت إلى حجزهن فى «الحريم». ففى جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت فى وندسور فى انجلترا.

أمـا آخر مـرحلة فى رحلة اليوم فهى زيـارة القرافـة شرقى المدينة، فهنا شغـل المماليـك المتأخـرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضآت، إنما هيئت للموت فقط.

وكثير منها جميل وكثير أيضًا متداع، وتعـددت القباب حتى صـارت رمزًا لمـدينـة المـوت. وقـد ابتـدئ فى زرع

الأشجار فى الأراضى المحيطة ولكن التراب يملأ ما بين القبور. هيا نختار واحدًا منها. إذن فلنزر ضريح قايتباى فعسى أن يكون مفتوحًا. وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشاط عاش فى العصر السابق مباشرة للفتح التركى العثمانى. ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للأضواء أن تمر إلى الداخل.. أضواء ليست من صنع مصر.

ونكتفى بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت،فالتراب قد زكم الأنوف، وشعر الإنسان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها. فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا استعدادًا لسهرة المساء. وفى الفلوكة - عندما تقترب الشمس للمغيب - نرى مسجدًا جديدًا بالقرب من كبرى يصل بين الروضة والجيزة، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقًا بإحياء العمائر التى تمتد إلى السماء على الطراز القوطى.

الفصل الثانى عشر

القاهرة.. والأمسيات

إن ليل القاهرة يظل عالقًا فى الذكر أكثر من نهارها. بل هو مثير للشعور أكثر بكثير من ليالى أوروبا، ويرجع بعض ذلك إلى الطقس، فحالما تغيب الشمس خلف الأهرامات، تهبط درجة حرارة الجو هبوطًا سريعًا ملحوظًا سواء كان ذلك شتاء - عندما تكون درجة الحرارة فى النهار حوالى ١٥ درجة - أو صيفًا عندما تعلو فوق ٤٠ درجة. وتبدو النجوم اكثر عددًا وأشد لمعانًا بسبب جفاف الجو، بخلاف ما تبدو فى الأجواء الرطبة. إذن فما هى المتعات التى ننتظر من القاهرة أن تقدمها لنا عندما ينتشر ألفان من خفراء الليل الكبار السن

بنادقهم العتيقة يجوبون شوارع المدينة المتطورة ويحرسونها؟.

هناك أولاً ستة عشر مطعماً تنتشر على طول النيل، يتخذ بعضها مكاناً فى العوامات والباقى على الحدائق فى الهواء الطلق، وتظل مفتوحة طول السنة آمنة من الأمطار التى لا تهطل إلا دقائق معدودة كل عام، ولو أن بعض ليالى الشتاء قد تبعث القشعريرة فى الأجسام. أما مطعمى المفضل على النهر فهو كازينو الحمام على الشاطئ الغربى فى الجيزة. والجيزة محافظة منفصلة عن القاهرة لها محافظها الخاص بها، وهو يحرم بيع المشروبات الكحولية فى شهر رمضان عندما يصوم أتقياء المسلمين عن الطعام والشراب طول ساعات النهار، فى حين يسمح بذلك محافظ القاهرة (فى بعض الأماكن التى يرتادها السائحون). وعلى ذلك فلك الحرية أن تطلب - طوال العام خلاف ذلك الشهر - ما شئت من البيرة والزبيب[1] والنبيذ المصرى. وعصير الكروم المصرية فى

(١) الزبيب هو الانتاج المصرى للسائل عديم اللون الذى يتحول إلى لون =

الحقيقة يستحق شهرة خلاف ما هو عليه، فمزارع جناكليس فى الدلتا تنتج أنواعاً متعددة من الأنبذة الحمراء والبيضاء بأسعار معتدلة، وهى بالتأكيد أجود بكثير من الأنبذة العادية المنتشرة فى فرنسا. وعمر الخيام هو أحسن الأنبذة الحمراء كما أن كلوس نسطور أحسن البيضاء. والصنف الوحيد الذى تجده فى المطعم ليؤكل بجانب النبيذ هو الحمام المشوى على الفحم، وقد اتخذه الكازينو اسماً له، فإذا أخذت فى تناول طعامك أحاطتك – تراقبك بصبر – فرقة من القطط هى حتماً نتاج تلك التى كان يقدسها الفراعنة، ويظللك وأنت جالس حفيف أوراق شجر الكافور، بينما تنساب بجانبك – حتى تكاد تلمسها – الفلائك والمراكب ذات الأشرعة تحركها الرياح رائحة غادية تحمل حمولتها من البضائع..

وليست القاهرة مدينة يقصدها المهتمون بفنون الأكل وتذوقه، فمطاعمها – خاصة تلك الملحقة بالفنادق

= أبيض عند خلطه بالماء، وهو معروف باسم أوزو فى اليونان، وراكت فى تركيا، ويسمى فى البلاد الأخرى بالعرقى.

الحديثة – تقدم الطعام الغربي المعتاد الذى تتفاوت درجة جودته من جيد إلى متوسط، ثم إنها تقدم لك الأطباق باردة حتى طبق الأومليت، فإذا أصررت – كما أفعل دائمًا – على تقديمها ساخنة فأغلب الظن فإنها ستقدم لك شديدة الحرارة تصدك عن لمسها وتضطرك للانتظار حتى يمكنك الأكل. والحد من استيراد الكماليات يعنى اختفاء بعض الأنواع مثل الجبن الفرنساوى أو الايطالى. ولكن اللحوم المصرية جيدة خصوصًا لحم الضأن الصغير كما أن هناك أنواعًا ممتازة من الأسماك تأتى من البحرين المتوسط والأحمر ويقال إن كمية الفسفور العالية فى البحر الأحمر هى السبب فى ضخامة حجم الجنبرى السويسى.

ويمكن معرفة بعض الطرق الشرقية فى تحضير الأطعمة بتناولها فى المطاعم البلدية. وإذا كانت باريس مركزًا تجتمع فيه مدارس الطهى الغربى فإن استنبول هى الأخرى تعد مركز تجمع للطهى الشرقى لا يقتصر عليها فقط بل تمتد فروعه إلى كل الولايات التى كانت تابعة

للإمبراطورية العثمانية السابقة، أعنى اليونان وسوريا ومصر، وإنى شخصيًا أضع الطعام المصرى فوق اليونانى وأقل قليلًا من اللبنانى، فتجد فى المطاعم البلدية الكفتة والكباب وهما أشهى أصناف اللحوم ويحضر كل منهما من لحم الضأن، أما الكفتة فتحضر بفرم اللحم ثم شيه فوق شواية، أما الكباب فيشوى اللحم فى قطع صغيرة منفردة، وتجد أيضًا الملوخية وهى جديرة بأن يتذوقها المرء وهى نوع من الخضروات الغروية التى سبق أن ذكرنا أن الحاكم - ذلك الخليفة المجنون - قد حرم أكلها. وصنف آخر هو طبق المخ والكبد المقليين وتجده فى مطعم صغير بالقرب من باب اللوق، أما الكوارع وهى تحضر من حوافر الماشية فلم تمر من بين شفتى ولذلك لا أستطيع أن أحكم عليها..

وتوجد مطاعم كثيرة نظيفة للوجبات الاقتصادية التى يقبل عليها القاهريون، وهى مطاعم الفول المدمس والطعمية. وتصنع الطعمية على هيئة كرات صغيرة من خليط مكون من فتات الخبز والفول المجروش والبصل

وبعض الأعشاب العطرية وتضاف إليه الخميرة ليصير هشًا ناعمًا ثم ترش الكرات بحبات السمسم وتقلى فى الزيت. وفى هذه المطاعم يمكن للشخص أن يتناول كفايته من الطعام بما فى ذلك رغيف بلدى مستدير وسلاطة بما تعادل قيمته حوالى عشرة قروش.

ها نحن الآن قد فرغنا من تناول العشاء، والمعتاد فى القاهرة أن تعوض كمية الطعام ما ينقصه من الجودة. فماذا بعد ذلك؟.

يجيب القاهريون على هذا السؤال بطرق مختلفة ولكن الأمر المعتاد هو أن يقضى النساء أوقاتهن فى البيوت فى حياكة بعض الملابس الخاصة أو فى مشاهدة التليفزيون أو الاكتفاء بالتحدث مع غيرهن من النساء. أما الرجال فيتوجه كل منهم إلى مقهاه من ضمن ستة آلاف مقهى منتشرة فى المدينة ليشرب الشاى ويقطع الوقت مع غيره فى لعب الطاولة أو فى مشاهدة التليفزيون أو مجرد الحديث، وهذه متعات تلزمهم الجلوس ولا تنطلق بهم. غير أن الشبان صاروا ينتمون إلى الاندية الرياضية

ليمارسوا بعض الألعاب، وإلا فإنهم يزحمون الأرصفة عند مداخل دور السينما.

وأمسية الخميس هي أمسية السينما بلا منازع لأن الجمعة هي يوم الراحة... وفي القاهرة اثنتان وتسعون دارًا للسينما يختار المرء منها ما يحلو له، وجمهور السينما في العواصم العربية لايقل حماسًا لها أبدًا عن أمثاله في البلاد الأخرى. والقاهرة هي المدينة العربية الوحيدة التي توجد فيها صناعة سينمائية ضخمة فقد انتجت استوديوهاتها التي تقع على طريق الأهرام أفلامًا منذ العشرينات. وكان الإنتاج في بعض السنين يزيد على مثيله في بريطانيا، الأمر الذي جعل بعض المخرجين الرواد مثل يوسف شاهين يبدي أسفه لان الكثرة طغت على الجودة وسلبته المقدرة على الوقوف بجانبها. ويأخذ الفن السينمائي المصري أسلوبًا واحدًا لا يغيره. ولي تجربة شخصية مع هذه الصناعة عندما كانت تحت السيطرة الرأسمالية، فقد دعتني صديقة لتناول الغداء مع أحد المنتجين الكبار وهو من أصل شامي بدأ حياته في

تصميم زينات لشعور السيدات (وربما كانت جوستين إحدى عميلاته - البطلة الروائية فى رباعية لورنس داريل) ثم خصص نفسه لتصميم الأفلام للملايين العرب. وطلب منى قائلا «أريد قصة يامستر ستيوارت تليق بنجمتينا الكبيرتين فاتن حمامة وشادية، وستكلفانى معًا نصف ميزانية الفيلم فلذلك أطلب أن تحتوى القصة على شيء جديد مبتكر». وقد سبق أن شاهدت هاتين السيدتين، إحداهما - فاتن - متزوجة من عمر الشريف الذى لعب دور الشيخ فى فيلم لورنس، وهى فيما أعتقد أشد الممثلات إخلاصًا لعملها، والأخرى - شادية - فتاة ظريفة تبدو مرحة ولها صوت رفيع.

سألت «أتطلب شيئا واقعيًا؟».

فرفع يديه بأظافرهما الملمعة فزعًا وقال «أعوذ بك يا مستر ستيوارت. أرجوك إن جمهورنا من الطبقة الفقيرة وعندهم ما يكفيهم من الواقعية، إنما أريد لهم أن ينطلق بهم خيالهم بعيدًا عنها».

وهذا لا يطابق الواقع كما شاهدت فى الأفلام

المصرية، ولكنني كنت في ذلك الوقت محتاجًا إلى المال - كما تعلم بذلك صديقي - وكان ما عرضه علي - مقابل عشرين صفحة - ما أقنعني. إلا أن صديقًا حذرني ناصحًا: «خذ حذرك فإنهم سيدفعون لك أجرتك عن كل مرحلة من العمل إلا الأخيرة منها» وقد تبين صدق قوله فكنت لا أنال ما أستحقه إلا على أقساط ضئيلة وبعد إلحاح وكلما اتصلت بالمنتج تليفونيًّا فإما أن يكون «نائمًا» أو «متغيبًا في سوريا». ولما انتهيت من القصة وبقي لي ثلث ما أستحقه قيل لي في نبرة استياء «كان يمكن لابني أن يسطر في صفحتين ما ملأت به عشرين صفحة. أما عن لغتك الإنجليزية فإن ابنتي وهي طالبة في الجامعة الأمريكية تقول إن المستر ستيوارت يكتب لغة انجليزية جيدة ولكنها ليست بالإنجليزية الخالصة».

وماذا كان في مقدوري أن أفعل. لقد كنت غير راض عن هذا السيناريو غير الواقعي. ألم أظهر شادية في أحد المناظر وهي محرومة من الأولاد تبكي وفي يدها كتاب مفتوح من كتب الأطفال جالسة على أريكة من طراز

لويس السادس عشر. فإذا انتهى هذا المشهد المرسوم، تجف الدموع وتتحول إلى بسمات ونرى شباناً فى سياراتهم وطائراتهم ثم تنتهى بهم حبكة القصة بغسل الدموع بالغناء والرقص. وقد مثلت كل من فاتن وشادية دورها جيدًا.

وقد مثلت فاتن أيضًا فى فيلم «دعاء الكروان» وهى تراجيديا تدور وقائعها فى الصعيد ألفها الأديب الكبير الدكتور طه حسين. وأخت فاتن فى القصة يغويها محام فتنهض هى للانتقام منه، وكان النصف الأول من الفيلم واقعيًا إلى درجة تظهر فيه الأقدام حافية تحوطها الخلاخيل. الأمر الذى لم نسمع به من قبل. وهبط النصف الثانى، وفيه نرى المحامى يصطحب فاتن - التى نراها فى زى سيدات الزمالك - إلى نزهة على شاطئ البركة، وهو ما لايخطر مطلقًا على بال أحد فى الصعيد المحافظ.

ولعبت شادية بعد ذلك دور فتاة من بنات الليل فى أحسن فيلم - فى رأيى - أنتج إلى الآن، هو فيلم

«اللص والكلاب» كتب قصته نجيب محفوظ حول شرير تطارده الصحافة، وهو سفاح أصيب بلوثة وانتهى به الأمر بأن حوصر وقتل بالرصاص تمامًا مثل ما حدث للمجرم الأمريكى ويللنجر. وقد رمز نجيب محفوظ بهذا القاتل عن الشخص الحديث الحائر الذى خانه مرشده وتخلى عن مبادئه. ومن العجب أن هذا الفيلم قد خلا من مواقف المرح المصطنع والفقرات الخطابية الجوفاء، فجاء السيناريو سريع الحركة قاسيًا مثيرًا قليل الحوار.. ولم يكن سبب انحراف البطل تافهاً فقد دفعه إليه - أثناء عمله كخادم فى بيت الطلبة - طالب يسارى لا يقيم وزنًا للقيم الروحية. وكان هذا الطالب يعتقد أن المبادئ الاخلاقية قد بليت وعفى عليها، وأن اللص فى البلاد الرأسمالية حينما يسرق إنما هو شخص تقدمى، وهى أفكار قد عفى عليها فى الغرب ولكنها لا تزال تأخذ بقلوب بعض الأشخاص. إلا إن هذا الطالب يغدو صحفيا ناجحًا ويتزعم حركة مطاردة تلميذه الذى طبق دروسه بحسن نية، ثم ينشرح صدره عندما يبلغه نبأ مقتل المجرم. صرعه رجال الشرطة برصاص المدافع الرشاشة

بجوار جدران جامع الجيوشي. ولم يبكه أحد سوى بـائعة الهوى.

وهنـاك علامـات توحي بـأن الأسلوب المعتاد الـذي يسيـطر على قصـة الفيلم المصري لم يعـد له مجـال كبير، وظهرت مناقشات في الصحف كان اتجاهها ضد الاعتماد على أسماء النجـوم فقط لما تبـين - كما أخبـرني صديقي المخرج - أن ذلك كان يستغرق الجزء الأكبر من ميزانية الفيلم الضئيلة (حـوالي ٢٥,٠٠٠ جنيهـا) فـلا يبقى إلا القليل لكاتب السيناريو وبقية الفنيين المتخصصـين، كما أن أكثر النجـوم ليست لهم قـدرة فنيـة كبيـرة، لأن خبرتهم في التمثيل نبعت نتيجة لاجتهادهم الشخصي، ولم تنبع نتيجة للتدريبات المنتظمة في دور التمثيـل التعليمية، وقد يقفز أجر الوجه الجديـد المبتدئ.. وإذا لقي حـظوة لدى الجماهير من ١٥٠ جنيهًا في الفيلم الأول إلى ألفـين من الجنيهات في الفيلم الثاني، ثم يملأه الإطراء بـالغرور طول حياته، ما لم يكن - مثل عمر الشـريف - صاحب موهبة حقيقية.

ويمكن القول بأنه لن يتم إنقاذ الفن السينمائى المصرى والنهوض به إلى المستوى الذى يجعله جديرًا بالتقدير فى الدوائر السينمائية العالمية إلا عن طريق النهضة المسرحية التى تعد الظاهرة الثقافية الكبرى فى مصر والتى استمرت قوية منذ ظهورها فى أوائل الستينات.

وقد ظهر التمثيل المسرحى فى مصر فى نهاية القرن التاسع عشر واستمر بشكل أو بآخر حتى سنة ١٩٥٢ فلا نجد فيها سوى مسرحين جادين فقط. أما الآن فهناك ما لا يقل عن ثمانى عشرة فرقة مسرحية تعمل على أربعة عشر دارًا مشيدة للتمثيل، وهذه الفرق قابلة للزيادة وتختلف المسرحيات التى تقدم على مدى واسع ابتداء من الكوميديات المحلية التى تتخذ فيها عناوين مثل «بابا ما يعرفش» إلى ترجمات من بيكت ويونسكو. ومن هذه المسارح مسرح الجيب الذى أنشئ ليعرض المسرحيات العالمية الطليعية، كما أنشئ مسرح توفيق الحكيم ليعرض مسرحيات الكاتب المسرحى الأول فى

مصر، وكذلك أنشئ معهد عال للفنون المسرحية يتخرج منه ممثلون شبان يجد كل منهم عملاً - بضمان من الحكومة - حال تخرجه. وقد أجريت حديثًا مع الوزير المسئول عن الثقافة فى مكتبه فى أحد الأدوار العليا من مبنى التليفزيون العربى على النيل مندوبًا عن هيئة الإذاعة البريطانية شرح فيه اتجاه الحكومة نحو الثقافة فقال:

«منذ قيام الثورة صارت مقاليد الحكم فى أيد مصرية صميمة، وذلك لأول مرة منذ العصور الوسطى وهدف الحكومة هو تعميم حد أدنى من الثقافة بين جماهير شعبنا جميعًا، ولا تبرر إقامة شخص فى أسوان أو حتى فى واحة سيوة أن يكون بعيدًا عما يجرى حولنا فى العالم الحديث، بل يجب أن يكون على بينة من ذلك، إما بقراءة الصحف أو حتى بمشاهدة التليفزيون، ونحن سنوجه مجهودنا الأكبر - بدون أن نستحى من ذكر ذلك - إلى الجمهور الكبير لأننا نعتقد أنه عندما يتمكن جميع أفراد الشعب من معرفة القراءة والكتابة وأن يعمهم جميعًا حد أدنى من الثقافة فقد كونا بذلك قاعدة عريضة قوية يمكن أن نبنى

فوقها إلى أن ينتهى بنا البناء إلى قمة هرميـة من الكفاءة العالية»

وهذه المحاولة الواعية لجعل القاهرة مركزًا للإشعاع الثقافى لجميع أنحاء البلاد يظهر واضحًا فى الموسيقى، وبشكل أوضح فى الغناء. وقد كانت الكلمة طوع فصاحة العرب دائمًا، وفى نفس الوقت تؤثر بسهولة على عواطفهم. وكان الشعر هو الفن الصحراوى القديم، وفى مصر المثقفة تغلغلت أغانى أحمد شوقى وأحمد رامى الشعرية فى الجماهير العريضة باستماعها إلى صوت سيدة فريدة هى السيدة أم كلثوم، ولها معجبون فى العالم العربى كله. وقد كان من عادتها أن تقيم حفلاتها فى الخميس الأول من كل شهر فتمتلئ المقاهى من بغداد إلى مراكش انتظارًا لأغنيتها الجديدة. ويوجد فى القاهرة بالقرب من ميدان التوفيقية مقهى أم كلثوم، وهو من ثلاثة طوابق، الأرضى منها مفتوح على الشارع وهو مقهى عادى بأنواره وضوضائه، والطابق الثانى خافت النور وبه مسجل للصوت ينساب منه صوت أم كلثوم

قويًا يستمع إليه شباب من الطليعة وموظفى الحكومة والجنود ساعات متواصلة وهم جالسون يرتشفون القهوة فى هدوء، أما الطابق العلوى فالنور فيه أشد خفوتا يجلس فيه المدمنون على الاستماع فى خشوع تام حيث تعتبر مجرد الهمسة بخسًا فى محراب الفن.

أما بخصوص الفنون الشعبية فقد اتجه تشجيع الدولة لها نحو التهذيب دون البتر أو الحجر أى - على حسب التعبير الفرويدى - إن الدولة اخذت وظيفة الأنا (السوبر ايجو) أى النفس الحكيمة التى تضبط وتنظم «الإد» أو الغرائز اللاشعورية التى تهيمن على الجماهير. وقد طبق هذا التهذيب على الرقص.

ولكى ندرك هذا الموقف يجدر بنا أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر عندما ألف لين كتابه عن عادات المصريين. ففى ذلك الوقت ذكر لين أن الراقصين كانوا صنفين: الأول منها يتكون من الغوازى وهن نساء قبيلة معينة كن يرتدين عند الرقص زى السيدات التركيات الأنيقات فى ذلك العهد، وهو عبارة عن سراويل واسعة

وصـديريـة وحزام يغـطيها كلهـا قفطان ذو أكمـام مدلاة مشقـوقة، ويضعن فـوق رءوسهن قلنسوة منبسـطة. وقد تتبع لين أصـولهن حتى العصر الـرومانى. وكن مـطلوبات للرقص أمام الضيوف الرجال فى حفلات الزفاف. وكتب لـين الوقـور «أما عن رقصهن فيكـاد يكون خـاليًـا من الأناقة، وأهم مـا يميزه هـو هز الأرداف هـزًّا سريعًـا من جانب إلى آخر».

وحيث أن التقاليد المحافظة النابعة من الدين فى ذلك العهد كانت لا تسمح باختلاط الجنسين، فما بالك برقص النساء أمام الرجال حتى ولو كن من طائفة احترفت هذه المهنة من قديم الزمان. فإن ذلك استـدعى ظهور الصنف الثـانى من محترفى الـرقص للتغلب على هـذا الاعتراض واعتبره بعض الغيورين أفضل قليلا من الاختلاط. وهذا الصنف يتكون من رجال من أهـل البلاد يتـزيون بـزى النسـاء وينتحلون شخصيتهن، وعـلى ذلـك يؤدون نفس الحركات التى وصفناها عنـد ذكر رقص الغـوازى، «على نغمـات الصاجـات مثلهن تمـامًـا. رحتى لا يشتبـه عـلى

البعض فيعتقد أنهم من النساء حقيقة فقد تخير هؤلاء الراقصون لزيهم لباسًا يتفق مع مهنتهم غير الطبيعية، يخلط بين ملبس الرجال وملبس النساء، ويتكون عادة من صديرية ضيقة وحزام مع نوع من «الجونلات».. إلا أن منظرهم العام يوحى بأنه نسائى أكثر مما هو رجالى لأنهم يطلقون شعورهم ويجدلونها - كما تفعل النساء - على شكل ضفائر نسائية، وينتفون شعر الوجه عندما يبدأ فى الظهور، وكانوا يقلدون النساء أيضًا فى تكحيل العيون وصبغ الأكف بالحنة، ثم إنهم بعد الانتهاء من أداء رقصاتهم، يتحجبون أثناء سيرهم فى الطرقات لا استحياء من مهنتهم بل إحكامًا فى تقليد النساء. وكثيرًا ما كانوا يفضلون على الغوازى للرقص أمام الدور أو فى أفنيتها الواسعة فى مناسبات الزواج أو إنجاب الأولاد أو الختان، وكثيرًا أيضًا ما كانوا يزاولون مهنتهم فى المهرجانات الشعبية العامة.

أما رقص البطن المنتشر فى النوادى الليلية الحديثة (وفى القاهرة منها خمس وعشرون ناديًا ليليا) فهو آخر

مرحلة من تطور رقص الغوازي، وبدلة الرقص ليست من تقاليد البلاد في شيء، إنما هي اعتقادات خاطئة في أذهان بعض مصممي الأزياء الأوروبيين ابتدأت عندهم عند عرض منظر الرقص في أوبرا «عايدة». وهذه البدلة تبدي جزءًا عاريا من الجسم بين غطاء الصدر النحاسي اللون وبين الجزء السفلي الشفاف. وفي عهد فاروق كان كل معجب براقصة يرمي تحت أقدامها بعملات ذهبية رقيقة كصفائح الصفيح فتأخذ كل راقصة ما يلقى عليها من عملات وتثبتها في بدلة رقصها كالترتر.

وكانت المنطقة العارية من البطن أول ضحايا «التهذيب» الحديث، فصدر قرار بعد الثورة بوجوب تغطية هذا الجزء من البطن بالشاش أو بالتل. وحاول - عبثًا - بعض ذوي الأفكار النظرية خلق نوع من الفن «الخالص» من هذه الرقصة المثيرة للغرائز والتي تأخذ في أسوأ حالاتها شكل هزات كأنها الرعاشات على توقيعات سريعة من ضربات متلاحقة من الطبول.

وكثيرا ما نجد عازفًا كفيفًا فى الفرقة الموسيقية ولا يقتصر أداء رقص البطن على النوادى الليلية مثل الموجود فى فندق هيلتون، بل يمكن مشاهدته فى أى حفل زفاف فى المدينة حيث تهتز البطون العارية مع نفس الحركات والإيماءات المتوارثة كما كانت من قبل على الدوام. ولا يزال فى الإمكان استخدام الراقصين الرجال المتزيين بزى النساء، وقد تركوا شواربهم تكبر وشعورهم تنمو إلى جدائل طويلة وينتفون حواجبهم وصاروا يعرفون الآن باسم «أبو الغيط» بدل اللقب الذى كان يطلق عليهم سابقًا لأنه صار الآن نوعا من الشتائم والإهانات ذلك أنه أصبح يطلق على المخنثين من أصحاب الشذوذ الجنسى.

وإذا كانت الغوازى والمتشبهون بالنساء مظهرين من مظاهر «الإد» أو الغريزة فإن فرقة رضا للفنون الشعبية تحظى بالقبول لدى «السوبر ايجو» أو«الأنا» وكان السبب فى تكوينها أن فرقة أوبرا بكين زارت القاهرة بعد اعتراف مصر بالصين الشعبية مباشرة، وعند وجودها فى

القاهرة قدم السفير الصينى دعوة «لفرقة مصرية راقصة» أن تزور بلاده. وسببت هذه الدعوة حرجًا حيث لا يمكن التفكير مطلقًا أن ترد الزيارة فرقة من الغوازى أو المتشبهين بالنساء، ومن ناحية أخرى لا توجد فرقة أخرى صالحة ولكن لم يلبث هذا الحرج طويلًا حيث بادر كل من محمود رضا وزوجة أخيه فريدة فهمى وكونا فرقة راقصة بسرعة تستحق الإعجاب، ونالت هذه الفرقة شهرة عند الجماهير نتيجة لحبهم إياها. وقد تكونت هذه الفرقة فى مبدأ أمرها من طلبة جامعيين (وقد سبق لمحمود رضا أن قام بالرقص لمدة عام فى باريس مع فرقة الفريدو الاريا الأرجنتينية الراقصة). وكما جاء فى جريدة «الآراب اوبزرفر» عن الفرقة فإنها «قدمت من سنين عديدة بالية كاملًا باسم «عروسة النيل» تحكى قصة عاشقين قرويين - على غرار روميو وجولييت - ولكنها تنتهى نهاية سعيدة. وصار هذا البالية محور عروض الفرقة فى تجوالها فى ألمانيا ويوغوسلافيا والاتحاد السوفيتى حيث قدمت سبعة وعشرين عرضًا، واشتركت الفرقة فى يوغوسلافيا فى مهرجان للرقص

الشعبى وحازت على الجائزة الأولى»

أما الفن الشعبى الآخر وهو القراجوز فقد تغير هو أيضًا تغييرًا شاملًا مماثلًا لما حصل للرقص وهو يشبه عروض بانش وجودى في بريطانيا، وكلمة قراجوز وهى كلمة تركية تعنى «العيون السود» - كانت اسمًا لأحد مهندسى صلاح الدين، ولكن لا نعرف كيف أطلقت على هذا الفن الذى تتوه بنا أصوله الأولى عند السهول الصحراوية على مشارف الصين. وكان القراجوز يعرض على طريقة خيال الظل فكانت عروضه لا تقام إلا ليلًا كما ذكر لين في كتابه المذكور. وقد عثر على مجموعة جميلة من عرائس القراجوز في حفريات في الفيوم (على بعد ساعة بالسيارة من القاهرة) وهى موجودة فى برلين، وقد صنعت فى القرن السادس عشر لتسلية أحد البكوات المماليك. وتمتاز بيريه فى اليونان الآن بعروض القراجوز فى شكل خيال الظل وعلينا أن نتوجه لهذه المدينة إذا رغبنا فى مشاهدة هذا العرض فنشاهد أشكالًا شفافة ملونة مصنوعة من الرق وهى تلعب كوميديات غالبًا

ما تكون مخلة بالآداب. أما في القاهرة فلا يزال القراجوز يطلق على عرض للعرائس مثل «بانش وجودي» تصاحبه جلبة عالية، ويطوف في شوارع المدينة بصحبة بعض البهلوانات وعازفي الصندوق الموسيقي - البيانولا - الذي تزينه صور سيدات على الطريقة النابولية. وأعرف شخصياً اثنين ممن يحترفون هذا الفن من العرائس القفازية الذين سرعان ما يجذبان جمهورهما بأصواتهما ذات النبرات العالية نحو كشكيهما ذوي الألوان المبهرجة، ويندمج الأطفال في بعض الأحيان مع هذه العرائس إلى درجة أن يقفز من بينهم طفل يحاول أن يقرص واحدة منها تحت السرة تكون قد أثارته، الأمر الذي يبعث السرور عند مرتشفي القهوة الجالسين على شرفات المقاهي.

وكما أمكن تهذيب رقص الغوازي والمتشبهين بالنساء إلى فن من الرقص الشعبي، كذلك أمكن تطوير القراجوز إلى مسرح للعرائس تحت إشراف وزارة الثقافة. وكانت فرصته التي ساعدته على الظهور إنشاء

مسرح خاص بأنواره التى يمكن التحكم فيها. وفى يناير سنة ١٩٦٣ ألف صلاح جاهين - أحسن رسّامى الكاريكاتير وأضخمهم أيضًا - رواية «حمار شهاب الدين» لهذا المسرح، وهى قصة خرافية وقعت حوادثها فى بغداد ولكن على أحدث التقاليد. وكانت الإضاءة بديعة وتحريك العرائس بارعًا. ولكن بالرغم من براعة صلاح شاهين كزجال وليس كرسام كاريكاتورى فقط فإن من كتبت هذه الرواية تحت رعايتهم اشترطوا عليه ألا يأتى بأى فحش فى القول أو عنف أو نكات ذات تورية. فكان هذا الوقار سببًا فى فقدان كثير من المميزات الخاصة بهذا النوع من الفن والتى نجدها فى العروض الشارعية. وهذه الأخيرة التى لا تنتفع بأية مساعدة مالية من الدولة تذكر - أو هى تعرف بالغريزة - بديهية دورانتى أستاذ فن العرائس العظيم فى القرن التاسع عشر الذى يقول فيها «ما تؤديه العرائس هو أهم ألف مرة مما تنطق به».

الفصل الثالث عشر

العلم والتعليم

عُرِفَتْ القاهرة طوال ألف سنة معدودة بأنها أهم مركز لنشر العلم فى أفريقية، ولا شك أن هذه الصدارة لم تكن على الدوام ميزة خارقة، ذلك لأنها صدارة على عدد قليل جدًا من معاهد العلم فى تلك القارة. ولكن هذه الميزة زادته جدارة فى المائة السنة الأخيرة.

ويأتى تفوق القاهرة فى مضمار نشر العلم نتيجة لإنشاء الأزهر فى السنة التالية لدخول الفاطميين إلى مصر، وكان انشاء هذا المسجد الجامعة دفعة حيوية لمصر والإسلام وأفريقية، فحق علينا هنا أن نشيد بصاحب الفضل فى قيام الأزهر ونذكر اسمه كاملًا فهو جوهر

الكاتب الصقلي[1]، وينطق المصريون الجيم في اسمه جامدة ولا يعطشونها كما تعطش في كثير من البلاد العربية.

وقد اتسع الأزهر (جامع الأزهر) كثيرًا على مدى الأعوام والقرون، أما الجامع فيحتوي على تعويذة عجيبة، وهي عبارة عن رسم لطيور موجودة في أعلى أعمدة ثلاثة من أعمدته، وذلك من أجل منع الطيور الحية من اتخاذ أعشاش لها داخل مبانيه. وكما بنيت كليات أكسفورد أصلًا حول الكنائس والمحاريب (ولم تخطر فكرة إنشاء بيوت مخصصة لمعيشة الطلبة إلا فيما بعد) فكذلك كان المسجد هو النواة التي امتد الأزهر حولها فخرج عن نطاق التعويذة وأصبح لا شيء يحول دون زقزقة العصافير أن تنازع انصراف الأساتذة إلى إلقاء محاضراتهم. ولكن على حين أن أكسفورد – التي قامت بعد الأزهر – أخذت تتقدم وتتطور سريعًا بعد

---

(١) معروف في كتب التاريخ العربية بجوهر القائد الصقلي لا بجوهر الكاتب. (المترجم) فهو صاحب السيف الذي فتح مصر للفاطميين.

القرن السادس عشر فقد بدا أن الأزهر ظل راكدًا، كبلته التقاليد الموروثة وإن اعترف لها بأنها تشتمل على محاسن كثيرة، ولا يزال العلم فى الأزهر يسرّوع زائره إلى اليوم حين يرى أستاذًا مبجّلا مهيبًا يتحلق حوله تلاميذه وهم قعود على الأبسطة فى الجامع الكبير. ولكن مناهج الدراسة كانت محدودة وطابعها سلفيًا فهى مقتصرة على تدريس تجويد القرآن وعلم الحديث وقواعد اللغة العربية والفقه الإسلامى.

أما الطلبة أنفسهم فكانوا يقسمون حسب موطنهم، ولكل قسم مكانه الخاص به، للإقامة والدرس داخل الأزهر، وتسمى أمكنة الإقامة بالحارات وأمكنة الدرس بالأروقة. والرواق مكان محدد بين أعمدة معينة. وإليك بيان أقسام الأروقة حتى القرن التاسع عشر: رواق الصعايدة (مصر العليا) – رواق المجاورين (مكة والمدينة) – رواق أبناء السودان ودارفور – رواق الشوام – رواق أبناء جاوة – رواق أبناء الأفغان – رواق المغاربة (شمال إفريقية) – رواق أبناء الصومال – رواق

الاتراك - رواق الأكراد - رواق أبناء الهند - رواق أبناء بغداد - رواق أبناء النوبة - رواق أبناء الواحات والفيوم. أما الإيرانيون فلم يكن يقد منهم أحد لتمسكهم بالمذهب الشيعي، فالأزهر وإن نشأ على مذهب الشيعة قد تحول إلى مذهب أهل السنة بعد زوال حكم الفاطميين. حقا هيهات أن نجد فى الماضى أو الحاضر جامعة دينية مخصصة لتدريس المذهب الأم (كالكاثوليكية فى المسيحية) تضم مثل هذا الحشد الهائل من الطلبة الذين يضمهم الأزهر من بلاد مختلفة. أما تأثير الأزهر - حتى فى أيام تخلفه - فعظيم، لأن أئمة الدين فى المجتمعات الإسلامية المختلفة فى أنحاء العالم اتخذوه منارًا وعدوه ينبوعًا لأصول الدين قبل تفرق المذاهب (كالأرثوذكسية فى المسيحية).

وهناك مرحلتان رئيسيتان مر بها الأزهر فى محالة تجديده ليلائم العصر، الأولى بتأثير من الشيخ محمد عبده فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إذ جعل للأساتذة مرتبات ثابتة دائمة، وأضاف بجهوداته كليات

جديدة. أما المرحلة الثانية فجاءت بعد ثورة سنة ١٩٥٢ بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، فقد أدركت حكومته أن المتخرجين من الأزهر يعودون إلى كل ركن من أركان أفريقية وآسيا غير مؤهلين إلا لتدريس الدين واللغة العربية، ورأى الرئيس جمال عبد الناصر ومستشاروه أن في استطاعة هؤلاء الخريجين أن يكونوا قادة – كل واحد منهم في موطنه – لا باقتصاره على تدريس العلوم الدينية وحدها، بل كذلك بتدريس أساليب العلوم والنظم العملية اللازمة للمجتمعات النامية.. إذن يجب على الأزهر أن يكون معهدًا تقدميًّا يساير العصر دون أن ينحصر داخل العلوم التقليدية، فبفضل هذا التطور يتحقق الصالح العام للعالم الإسلامي. فكان إن ظهرت حركة تشابه تلك التي انتجت القسيس العامل خارج كنيسته للخدمة العامة عند الكاثوليك. والآن نرى الهندسة وبقية العلوم تدرس لطلبة الأزهر، كما سمح للبنات بالالتحاق به، وهو أمر لم يكن يتصوره أحد حتى في الجيل السابق القريب العهد بالجيل الحاضر.

وفي سنة ١٩٦٤ أعلنت خطوة جديدة جذرية وهي

مشروع إقامة جامعة جديدة للأزهر على مساحة ٥٠٠ فدان فى مدينة نصر، وهى ضاحية سريعة النمو لها إدارتها الذاتية وتقع شمال العباسية، كما ستخصص ١٥٠ فدانًا أخرى فى القبة لإنشاء كلية إسلامية للبنات تابعة للأزهر.

إن تطور الأزهر وهو يضم ٤٠ ألف طالب موزعين على معاهده الابتدائية والثانوية والمخصصة للدراسات العليا إنما هو - من أحد الجوانب - نتيجة تحد من نظام تعليمى آخر فى مصر، نظام علمانى صرف، فعلى حين ظل سيل من التلاميذ يرتدون القفطان والعمامة، ويدرسون وفقًا لمنهج سلفى لم يتبدل إلا قليلا منذ القرون الوسطى، تدفق سيل آخر يرتدى الملابس الإفرنجية ويدرس علوم الذرة والاقتصاد السياسى، ولم يكن بين التيارين إلا اتصال قليل أو قل لم يكن بينهما اتصال على الإطلاق.

وترجع هذه الثنائية فى نظام التعليم إلى المدارس العسكرية التى أنشأها محمد على، واتسعت الهوة بين النظامين خلال القرن التاسع عشر، منذ إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٣ إلى إقامة جامعة فؤاد سنة ١٩٢٧، وإمداد

بهذه المعاهد العليا بالطلبة يستند إلى نظام تعليمى بين ابتدائى وثانوى.. هو الآن اجبارى وبالمجان. ونسبة الالتحاق بالجامعة من بين الطلبة الذين أتموا الدراسة الثانوية هى أكبر من مثيلتها فى بريطانيا اليوم، ولكن هذا لا يعنى أن المستوى يرتفع إلى نفس الدرجة أبدًا، ولكن إحصاءات التعليم عن سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤ توضح مدى انتشاره فمثلا بلغ عدد الطلبة فى المدارس ٦٠٨ ألف طالب منهم ٢٦٢ ألفًا من الطالبات، ويبلغ مجموع عدد الطلبة الملتحقين بالدراسات الجامعية دون الدراسات العليا فى جامعتين فى القاهرة من أربع جامعات (جامعة القاهرة التى حل اسمها محل جامعة فؤاد، وجامعة عين شمس) ٧٢,٩١٣ طالبا منهم ١٦ ألف طالبة أو أكثر قليلاً، وهذه الأرقام وإن بينت أن النساء لم يأخذن قسطهن فى مجال التعليم كاملاً، إلا أنه يبين فى نفس الوقت سرعة انتشار تعليم البنات. وكل النساء اللاتى يقمن بدورهن المتزايد الفعال فى الحياة المصرية خريجات هذه الجامعات، وخير مثل منهن هى حكمت أبو زيد الوزيرة (السابقة) للشئون الاجتماعية التى كان من

أعبائها أن تنشئ ٧٠٠ مركز لتنظيم النسل فى جميع أنحاء الجمهورية.

ولأن القاهرة ترى نفسها مركزًا تعليميًا لإفريقية، فإنها - فضلاً عن منح عشرات الألوف من الشبان والشابات الافريقيين منحًا دراسية فى معاهدها - تستغل قوة الإذاعة التعليمية فتذيع من محطة الإذاعة المصرية «برنامج صوت أفريقية» يوميًا باللغات الأمهرية والسواحلية، واللنجالا والسيسوتو، والنيانجا، والصومالية، والفولانية، والهوسا، وأخيرًا باللغتين الإنجليزية والفرنسية لمن لم تكن لغته إحدى هذه اللغات.

الفصل الرابع عشر

القاهرة.. والفراعنة

يمكن أن يعتبر هذا الفصل القصير سلبيًا، فليست القاهرة فرعونية فى شىء، ولكنها تحوى المتحف المصرى فى ميدان التحرير، ويضم أفخر مجموعة من الآثار المصرية فى العالم. ويمكنك فى مقابل قرشين التجول فى أكثر من مائة غرفة فيه تضم بقايا مدنية ابتدأت منذ عرف الإنسان معيشة المدن. ويمر سيل لا ينقطع من الزوار من كل أنحاء العالم أمام أثاث توت عنخ آمون المتين أو يواجه موميات رمسيس الثانى وسيتى الأول (وكانت الموميات فى عهد فاروق محجوزة عن أعين السواح، فقد اعتبر هذا الملك هؤلاء الفراعنة ملوكا سابقين يجب أن

تضفى عليهم جلالة الملوك، أما الجمهورية الديمقراطية فقد سمحت - نظير رسم قدرة ٢٥ قرشا - بدخول القاعة رقم ٥٢ حيث تعرض المومياوات حاليًا). ويفخر القاهريون بمتحفهم ويعتقدون أنه السبب الرئيسى لحضور ٤٠٠,٠٠٠ زائر سنويًا للبلاد. ولكن الأسماء التى أشرفت على هذا المتحف ليست مصرية فقد أنشأه أوجست ماريت الفرنسي وصمم مبانيه نارسل بورجنون عالم المصريات، والدراسات التى بدأت بأوروبيين أمثال شامبليون وماريت لم تشمل المصريين بأعداد كبيرة إلا أخيرًا..

وإذا كانت القاهرة مدينة إسلامية وليست فرعونية، فإنها فى نفس الوقت مركز باهر للدراسات الفرعونية. وترجع جاذبيتها العظمى فى هذا المجال - حتى للسائح الخالى البال - إلى قربها من الجيزة وسقارة. وهناك عرض بالصوت والضوء عند الأهرام يقام كل ليلة يسترجع ألوف السنين التى سبقت البطالسة. ويستقبل أبو الهول - وقد تجلى بعد إزالة الرمال من حوله - اشعة

الشمس كل صباح على جبينه وهو يحدق بلا مبالاة ناحية المدينة. ويمكنك أن تشاهد - وأنت واقف على جبل المقطم عند الضاحية الجديدة - سلسلة من الأهرامات تمتد جنوبًا حتى نهاية البصر. وإذا وصلت إلى محطة القاهرة قادمًا من الإسكندرية أو بور سعيد فستشاهد خارجها تمثالاً ضخمًا لرمسيس الثانى - الذى اكتشف قريبًا فى سقارة - واقفًا وحيدًا مديدًا تخرج من أقدامه نافورات من المياه

ولكن التأثير الواضح للفراعنة على القاهرة هو محاكاة لتصميماتهم ونقوشهم تزين بها قاعات المطاعم أو ترسم على بعض الأقمشة.

ولعلى أكون مخطئًا فى ذلك. فهناك تأثير إيجابى فرعونى واضح، ذلك أن الشابات يضعن الكحل حول عيونهن التى هى واسعة أصلاً. كما أنهن - بحيلة فنية - يتوصلن إلى إرسال شعورهن السوداء على نمط شعر نوفرت الجالسة على الدوام بجوار زوجها الأمير رع حتب فى الغرفة رقم ٣٢ بالدور الأرضى فى المتحف.

فهرس

صفحة



رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٢٥٢٢
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٩٩٨-٣	ISBN

١ / ٨٤ / ٣١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)